الـرِّوايـــة

(رواية)

علي هصيص

بدعم من أمانة عمان
٢٠٠٩

مكتبة جامعة اليرموك
٤٨٦٤٦٠
٢٠٠٩/٨/٢

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/٦/٢١٥٥)

٨١٣,٩
هصيص ، علي
الرواية /علي سعيد هصيص.- عمان: المؤلف ،
٢٠٠٨.
( )ص
ر.أ: (٢١٥٥/ ٦/ ٢٠٠٨).
الواصفات:/ القصص العربية//الروايات العربية/
/الروايات

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

جامعة اليرموك-المكتبة
486460

اسم الكتاب: الرواية

المؤلف: علي هصيص

تصميم الغلاف: عصام الأشقر

المراجعة اللغوية: محمد شحادة العاصي

الطبعة الأولى (٢٠٠٩)

الإهداء

إلى أستاذي الذي علمني معنى الرواية

وركوب السفينة...

ولكنه حلّق وحده في الأعالي

وتركني أصارع التيار وحدي

إلى الأستاذ الدكتور

خليل الشيخ

شعورا بالظلم...

وعرفانا بالجميل...

(١)

«السفينة» كانت أولى الروايات التي قررها الدكتور خالد الحاج على طلاب مادة «الرواية» لهذا الفصل، لم تكن رواية عادية بالنسبة إلى مالك، الطالب الذي قرأ عددا لا بأس به من الروايات قبل ذلك، أما «السفينة» فكانت تسير في مكانها وزمانها وشخوصها وأحداثها مثل آلة تعطلت، فلا بد من تفكيك هذه الآلة لإصلاحها وإعادة تركيبها.

مارآه مالك في «السفينة» كان أمرا صحيحا، وهو أن أول قطعة تفك هي آخر قطعة تركب، كان جبرا إبراهيم جبرا -والرأي لمالك- يضع كل فصل في مكانه وزمانه المناسبين، بل قل كل صفحة بل كل سطر، ليتم تركيب قطع الرواية وتجميعها بشكل غرائبي متألق، ليرى مالك بعد ذلك أن هذه السفينة نموذج مصغر مأخوذ من رواية كبيرة اسمها «الحياة»، وهذا ما قاله عندما كان الدكتور خالد يحلل الرواية أمام الطلاب.

لم يكن مالك يعلم أنه واحدٌ من ركاب هذه السفينة، لم ينتبه إلى شكل القاعة المستدير، بل الانسيابي الذي يشبه السفينة، ألم يكن الدكتور خالد ربانا ماهرا يقود السفينة؟

تُرى... لماذا اضطربت هذه السفينة يوما؟

(٢)

الدكتور خالد، حتى عندما تثقل الراء في نطقه تكون جميلة، وعندما يسرع في كلامه يشتد ثقل الراء، فيشتد الجمال وضوحا، مع شبه غياب في منحنى الراء لديه. هكذا كان يسمع مالك جمال الراء وصوتها في نطق أستاذه.

الدكتور خالد، لم تكن سرعته في الكلام لعيب في نطقه، ولا للثغة في لسانه، كل ماكان يراه مالك أن أمواج العلم تتلاطم في جوف الدكتور خالد وعقله ولسانه، كان يرى أن كلامه الجميل كوثر من بحر عذب فرات. زاخرٌ بالعلم فياض به، لا يسأله أحد عن مسألة إلا وفاض إحساسه بها، رغم أنه متخصص في الأدب الحديث؛ إلا أنه لسان العرب في التراث والقديم، وإذا ما تحدث بأحاديث جدته، كان عارفا بعادات العامة وتقاليدهم، فكما كانت ثقافته الأكاديمية معيارية، فكذلك كانت ثقافته الشعبية.

الدكتور خالد، كان حين يستطرد في كلامه يكاد يختنق، فروافد العلم كلها تجتمع في مكان واحد، يسرع في كلامه، كان مالك يقول في نفسه: عجيب أمره، حتى إذا تنفس فإن أنفاسه تقدم علما!

الدكتور خالد، كانت قدرته على ربط الأمور قدرة متينة، ليس كعقله عقل، كان يفهم كل مايدور حوله، كان يحلل شخصية الطالب الذي يصدر إزعاجا خارج المحاضرة، وكان إذا قام ليطلب من الطلبة خارج القاعة الهدوء، وجد الجواب الذي حلله وتوقعه سلفا.

كان عنيفا في العلم والمعرفة، كان عندما يتحدث عن كتاب قرأه يبدو كأنه يتحدث عن نفسه، لايتورع إذا تحدث عن كافكا مثلا، أن يدخل في الموضوع عبارة سمعها من امرأة عجوز، فتأتي العبارة حقا في مكانها، دون أن يضر هذا بالحديث

عن كافكا شيئا. وقد حدث ذات يوم أن استشهد بكلمات أغنية خليجية، ولم يكن يحفظها جيدا، ولم يستطع أن يأتي بالعبارة التي يريدها من القصيدة بشكل صحيح فأسعفه مالك قائلا:

تِدْفا على جال ضَوِّه بارِدِ عظام

والمـا يسـوق بمعاليق ويـرويـها

إذا صِفالَكْ زمانك عِلٍّ ياظامي

اشربْ قبل لايحوسَ الطين صافيها

(٣)

أحمد... ذلك الطالب العاشق، الطالب الذي ينتظر نهاية هذا الفصل بشوق الواله الحيران، لم يعد يحتمل، لم يكن ليصبر على هذا الفراق الذي كان يشعر أنه أزلي أبدي، عيناه تقولان شيئا واحدا فقط: الحب! فمنذ أن رآه الدكتور خالد عرف أنه عاشق، وعرف أنه مفتون منذ أن دخل القاعة متأخرا، كان دائم التأخر، كثير الغياب، قليل الحضور، حتى إذا حضر فإنه كثير الاستئذان والمغادرة، شارد الذهن، طاوي السريرة تفضحه عيناه.

كان بهي الطلعة، متباه بشعره إلى أسفل كتفيه، طويل القامة، مستدير الوجه، عميق الحب، مملوء الخافقين، قليل الكلام، يحاول أن يظهر الهم والغم، وأن يرسم صورة لمشاكل قاهرة تعرقل طريقه... مشاكل صحية وعائلية وعملية... ولكنه بعد محاضرتين أو ثلاث، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن مثل هذه المناورات لاتنطلي على الدكتور خالد ولو لبضع دقائق. مهما حاول من أساليب، فالدكتور خالد لاينفع معه إلا الصدق والوضوح، لأنه يميز الصدق من الكذب، كما يميز عقله من عقول طلابه.

(٤)

كان هذا هو الفصل الأخير لمالك ليشرع بعده بكتابة رسالة الماجستير، وعندما قام بتسجيل هذه المادة غير الإجبارية في شعبة الدكتور خالد، كان يطمح ويطمع بالحصول على أكبر قدر ممكن من الفائدة، وكان يعلم أن العنصر الأساس للحصول على الفائدة موجود في شخص الدكتور خالد، في طيفه وخياله وذكراه، في رائه وروايتها الثقيلة الجميلة المحببة. أما الأمر الآخر الذي دفعه إلى هذه المادة فهو الرغبة في العودة إلى عالم الرواية بعد طول انقطاع.

لقد كان يضمر في داخله ما يضمره، وما يعلنه، وما يسعى إليه كل طالب، كان يريد أن يحافظ على الامتياز، وهو على شفا حفرة. شرع يصارع كل شيء في هذا الفصل، الوظيفة التي تبعد عن جامعته وسكنه أكثر من ثمانين كيلو مترا، وعمله الإضافي بعد الوظيفة، وقراءة رواية أو روايتين أسبوعيا، إضافة إلى كتابة تقرير وبحث في مادة النقد الحديث عند الدكتور نايف مع ما تتطلبه مادته النقدية هذه من دراسة وجهد، ومادة الدكتور خالد تحتاج إلى تحليل رواية ومناقشتها، وأيضا طلب الدكتور خالد بحثا للمادة.

لم يقف الأمر بمالك عند هذا الحد؛ فلقد كان بحكم عمله في العاصمة، وطبيعة عمله الإضافي هناك، محطَّ أنظار الكثيرين ممن لهم مهمات في العاصمة، ولا يستطيعون أن يقوموا بها في وقت سريع، فالطلاب يوصونه ليشتري لهم الروايات وبقية الكتب، وكان يجهد في الحصول عليها بأدنى سعر، والأصدقاء يوصونه بمراجعة معاملاتهم في الدوائر والمؤسسات، عدا عن بعض المهمات التي يقوم بها في مدينته لأصدقائه القاطنين في العاصمة، وأحيانا

يحملونه ما لايحتمل من هدايا ووصايا ليوصلها إلى أصحابها، الأمر الذي كان يستنزف جهده وجيبه!

(٥)

كانت المحاضرات الأولى ملقاة على عاتق الدكتور خالد، تحدث عن نشأة الرواية العربية، وتحدث عن الرواية التاريخية، وضرب مثلا لها بروايات جورجي زيدان، والغريب في الأمر أن معلومات مالك عن روايات جورجي زيدان كانت أكثر من معلومات الدكتور خالد، فالدكتور خالد لم يكن يعرف أن لجورجي زيدان اثنتين وعشرين رواية، كلها تاريخية باستثناء رواية «جهاد المحبين» فالدكتور خالد تحدث عن الصدفة في الرواية، ومتى تجوز ومتى لا تجوز، ولكنه لم يكن يعلم أن جورجي زيدان أقام جميع رواياته على الصدفة، حتى روايته العاطفية «جهاد المحبين» التي اعتمدت في بناء أحداثها الرئيسة على الصدفة. الغريب أن الدكتور خالد وهو يقرأ لطلابه عن جورجي زيدان، قرأ اسم رواية خطأ، فقد قرأها «استعباد المماليك» والصواب «استبداد المماليك»ربما يكون المصدر قد أخطأ، ولكن الدكتور خالد كان مطلعا بشكل كبيرعلى أدب عصر النهضة وتاريخه، فلماذا لم يطلع جيدا على أدب جورجي زيدان الذي يعد رائد الرواية العربية، والتاريخية بشكل خاص! إن أجمل مافي روايات زيدان - وهذا مالا يعرفه الدكتور خالد - أن كل رواية من رواياته فيها قصة حب!

تحدث في محاضراته الأولى عن المصطلحات السردية، وكان يركز على مصطلح «التبئير» وكان يركز فيه أكثر مايركز على حرف الراء، وكأنه ينطقها الآن، تحدث عن السرد، والسارد، والمسرود له، وكان أجمل حديثه عندما تحدث

عن الكاتب الضمني، وكان يستعمل - إضافة إلى كلامه الجميل - حركات يديه لتوضيح هذا المصطلح. مع التشديد على الراء قليلا في أثناء الكلام.

إنه في حديثه عن المصطلحات لم يكن يجد أدنى صعوبة في استحضار مثال روائي لتوضيح المصطلح، كما الحكايات، والأمثال الشعبية، والقصص، والأساطير على قلبه وعقله ولسانه. إذا دخل في موضوع لا يتركه حتى يعطيه كامل حقه، وكأنه أحد أبنائه؛ فقد كان مالك يلحظ فيه ذلك الحرص؛ ليقدم الفائدة للطلاب، ولكنه حين يتوغل في موضوعه، ويتعمق في كلامه يكمن إخلاصه لموضوع الكلام فقط، يفارعليه، ويحرص على ألا يشوبه أي نقص، كان كأنه لا أحد أمامه، كان مالك إذا دخل بيته ليدرس تخيل على الجدار المقابل للسرير صورة الدكتور خالد وهو يعطي المحاضرة ويحلل الروايات، يتخيله متعمقا في أحداثها، حتى في الخيال... كان الغائب الذي لا يغيب... صورته الاعتبارية على الجدار لم تكن تفارق خيال مالك، حتى صار يسميه جدار النور والفلسفة!

(٦)

حضر أحمد متأخرا، وجد مكانه بانتظاره رغم صعوبة الوصول إليه من بين الجدار، وحقائب الطلاب الجامعية، ومقاعدهم، لم يطرح السلام ولم يعتذر، أما الدكتور خالد فقد تجاهله كملك يتجاهل شعبه المتضور جوعا.

راح الدكتور خالد يخوض في حديث الروايات، وراح أحمد عميقا في الخيال والذكريات، كان يبتعد بوجهه وعينيه إلى الخلف شيئا فشيئا، حتى صار مثل نهاية فيلم يذوب البطل فيه مع آخر البحر عند سقوط الشمس.

- أليس كذلك يا أحمد...؟

- نعم... نعم... صحيح دكتور!

لقد أحسن الدكتور خالد توقيت عملية الإنقاذ، فلم يدعه يسقط في البحر، لقد انتشله من الأعماق وأعاده إلى سطح السفينة في الوقت المناسب.

يا له من ربان ماهر!

سأل طلابه عن أسمائهم في المحاضرة الأولى فحفظها... الأمر الذي عجز عنه الطلاب أنفسهم!

بدأ الدكتور خالد يراقب أحمد وتحركاته، أو بمعنى أدق: عدمية حركاته، كان إذا خاض في التفكير توحد مع نفسه، وقيدها بقيود لايراها الإنس، كان الدكتور خالد وحده قادرا على فكها وتفكيكها بكلمة واحدة فقط: الحب.

كان يتعمد بين الفينة والأخرى أن يأتي بسيرة الحب في الرواية، لينتعش أحمد، ثم يعود إلى حاله التي كان عليها!

(٧)

خلال أقل من شهر، على بدء الفصل الدراسي، قدم مالك مخطط رسالة الماجستير، إذ يجوز للطالب في الفصل الأخير من دراسة المواد أن يقدم مخطط الرسالة ويناقشه، وقد تم رفض المخطط جملة وتفصيلا من اللجنة المسؤولة: حاولت الدكتورة أمل - المشرفة على المخطط، وعلى الرسالة المفترضة - أن تقنع اللجنة بموضوع الرسالة، ولكن الإصرار على الرفض كان أقوى من كل محاولاتها.

لقد توقع مالك أن يُرفض الموضوع، ولكن ليس بهذه الصورة القاسية، فاتجه إلى الدكتور خالد ليطرح عليه موضوعا في الأدب الحديث، وافق الدكتور خالد على الموضوع الذي اقترحه مالك، ولكنه قال بأنه لابد من استئذان الدكتور

أمل، حتى لا تظن بأنه قد سحب طالبها إليه، فطمأنه مالك بأن الأمر محسوم مع الدكتورة أمل، وهي ليست ممن يسيء الظن بالناس، ودائما تأخذ الأمور بواقعية متناهية، فلا أوهام لديها ولا سوء ظن بأحد.

سرعان ما اطمأن الدكتور خالد إلى كلام مالك، وطلب منه أن يكتب له ملخصا مختصرا عن موضوعه المقترح.

لم يُخْفِ مالك فرحته بموافقة الدكتور خالد، ولكن هذه الموافقة، وهذه الفرحة، ستكونان غصة في حلقه، وحالة من الكآبة يعيشها ذات يوم.

(٨)

خلال أقل من شهر أيضا، عرف كل ذي مكان مكانه، فقد أخذ كل واحد مقعده في سفينة الدكتور خالد، حتى إذا ما تأخر أو غاب عاد ليجد مكانه بانتظاره، كانت الطالبات أكثر اهتماما بمتابعة الدراسة، وأكثر اهتماما بإحضار الروايات التي يحين موعد مناقشتها. حدد الدكتور خالد لكل طالب رواية ليكتب تحليلا لها، ويعرضه أمام زملائه. وطلب من كل طالب بحثا في موضوع حدده الدكتور نفسه. على الرغم من محاولة الطالبات وبعض الطلاب مجاراة المادة الدراسية، إلا أن هذه المادة كانت تسبقهم كما وكيفا؛ فالمادة طويلة لاتخلو من الصعوبة، خاصة وأنه كان يظهر بوضوح على ملامح بعض الطلبة أنهم لم يقرأوا رواية واحدة في حياتهم، ومن كان قرأ عددا من الروايات فإنه لم يكن قد قرأ شيئا في نقد الرواية، أما الدكتور خالد فإنه يفترض ضمنا أن الطلاب يفهمون، أو في أسوأ الأحوال قد سمعوا بكل ما يقوله. لم يكن الطلاب يُخْفون خوفهم وقلقهم من المادة خارج المحاضرة، أما داخل المحاضرة فإنهم كانوا يتصيدون أية فرصة يجدون فيها الدكتور خالد في ساعة صفا، ليطلبوا منه التخفيف

ماأمكن من عبء المادة، ولكن هذا لم يكن يجد استجابة منه لسبب واحد فقط هو أنه لم يكن يستطيع سماع مثل هذه الأمور، فوقته محصور في كل شيء حتى وهو يتحدث في صلب الروايات، كان سريع البديهة، وسريع الاستماع والتفكير والكلام.

بعض الأحيان كانت المقاعد تختلف بأصحابها بعض الشيء، خاصة إذا جاء طالب متأخرا، ولم يجد ممرا مناسبا إلى مقعده، ولكن هذا لم يكن ليغير شيئا في مسار هذه السفينة، والأهم من ذلك أن مكان الربان عرش لايدنو منه أحد، وما إن بدأ الشهر الثاني حتى بدأت بعض المقاعد تتناوب في كل أسبوع لتكون فارغة بسبب غياب الطلاب، هذا الغياب الذي تحدث عنه الدكتور منذ البداية؛ ففي المحاضرة التي تلت تحليل رواية «السفينة» قال بأنه سيتخذ الإجراء المناسب بحق أولئك الذين تخلفوا عن السفينة، لقد كان صارما في كلامه، وإن كانت الدعابة والابتسامة تعلوان ملامحه، وتلونان كلامه، ولكن في مثل هذه الأمور لا تخلو ابتسامته من وعيد يكتم أنفاس الحاضرين، كان مالك ثاني طالب عن يمينه بعد فارس، وبعد مالك تستمر حبات الحلقة إلى أن تعود إليه، كان يقبض على أعناقهم بيده ولسانه، ربما كان مالك أكثر الطلاب اهتماما بالعلامة للمحافظة على الامتياز الذي كان شغله الشاغل، وفكره الذي يدور أينما دارت السفينة التي بدأت معالم رحلتها تنذر بغيوم ماطرة، ورياح عاتية، فالهدوء الذي يسبق العاصفة آخذ بالخروج عن صمته، ليدخل في ثنايا السفينة، ويخرقها فتصير حطاما.

(٩)

كان انتحار الدكتور فالح صاعقة، بل قل: يومئذ وقعت الواقعة، فالدهشة تعلو الوجوه التي تغيرت من الدهشة، ومن يقرأ الوجوه جيدا يعرف أن كل صاحب وجه في داخله رغبة عارمة بإعادة الحياة إلى الدكتور فالح؛ ليسمع منه سبب انتحاره! فكل واحد يحاول أن يجد مبررا لهذا الانتحار، أما الدكتور خالد، -وهو من الذين لهم كتابات متميزة في موضوع الانتحار، وخاصة الانتحار في الأدب العربي- فقد عزا انتحار الدكتور فالح إلى الظلم الذي وقع عليه، إنه الظلم الاجتماعي الذي أغلق عليه كل منفذ يمكن أن ينفذ منه إلى الحياة من جديد.

الغريب أن الدكتور خالد تعامل مع هذا الانتحار بسطحية عجيبة، وكان يمكن أن يتكلم محاضرة كاملة مدتها ثلاث ساعات عن موضوع الانتحار، لكنه لم يتطرق إلى كتاباته في هذا الموضوع، ولم يذكر أن له أبحاثا وكتابا في هذه المسألة المعقدة.

الأغرب من ذلك أنه بعد انتحار الدكتور فالح -وهو على قدر من العلم والثقافة - بدأت الروايات التي يدرسها طلاب الدكتور خالد تقدم في كل رواية نموذجا للانتحار، أو نموذجا للقتل، فنادرا ماكانت تخلو رواية من القتل، أوالانتحار. وكان الدكتور خالد يعزو القتل إلى الظلم، ويعزو الانتحار إلى الشعور بالظلم. أما الذي زاد الأمر عمقا، وجنوحا إلى الفلسفة غير المنهجة فهو تقريره رواية «أنت منذ اليوم» للروائي المنتحر تيسير السبول، فهناك أسباب كثيرة قيلت في انتحاره، منها نكبة حزيران، ومنها الفشل الحزبي، ومنها المجتمع، ومالم يقله الدكتور خالد هو أن هنالك رأيا يعزو انتحاره إلى عقدة نفسية هي غاية في الخصوصية!

(١٠)

«عالم بلا خرائط» ظلت تطارد مالك أسابيع بعد قراءتها، فرآها مدهشة حتى بعد قراءتها، بل إن الدهشة التي أصابته بعد القراءة بأيام وأسابيع لم يشعر بها في أثناء القراءة، وكلما حاول أن يرسم حدود الخرائط وجدها تتذوَّب في يديه باستمرار، ظل يحاول اغتنام الفرصة ليعيد قراءتها ولكنه لم يقرأها ثانية.

عندما اقترحها للدكتور خالد أبدى استياءه من هذا الطرح، وتحدث ببعض الكلام عنها، وكان يمكن أن يُستشفَّ من كلامه أنه ليس من أنصار الرواية التي يكتبها اثنان.

ظل مالك يفكر بالأمر بعد المحاضرة، فالرواية التي يكتبها اثنان تفرز أسئلة أكثر، وتفتح آفاقا أوسع، إنها عالمان بلا خرائط... من الذي صاغ النص، ومن الذي بدأ الكتابة، وهل كانت طريقة بناء الشخوص والأحداث أقرب إلى أسلوب جبرا أم إلى أسلوب منيف ؟ وهل كتباها في زمان ومكان واحدين أم عبر المراسلة ؟

هل هذه الرواية خدعة من قبل الطرفين؟ ثم من هو الكاتب الضمني في هذه الرواية؟ هل كان ظل جبرا أم ظل منيف؟ هل الكاتب الضمني هو المعادل الموضوعي لشيطان الشعر عند العرب؟ أم أن الشيطان ملهم - بكسر الهاء- والكاتب الضمني ملهم بفتح الهاء؟

ظل مالك يفكر في هذا الأمر: هل تهمل الرواية إذا كان لها كاتبان؟ تذكر الموقف ذاته عندما سأل الدكتور خالد عن رأيه في وجود مؤلفين اثنين لكتاب واحد، كان هذا قبل سنتين في مادة «مناهج البحث»، يومها قال بأن التطابق المطلق بين الاثنين سيكون مستحيلا، وسيغلب رأي واحد منهما على الآخر، ولن يعبر الكتاب عن داخل كل من الكاتبين بشكل مطلق.

لم يستطع مالك أن يتذكر الإجابة النهائية التي قدمها الدكتور خالد عن هذا السؤال، ولكنه تذكر سؤالا آخر سأله إياه في الموقف ذاته، وهو: إذا كنا نجد الآن مئات الكتب لأكثر من مؤلف، فهل كان في تراثنا كتب اشترك فيها مؤلفان اثنان؟ لقد فوجئ الدكتور خالد بعض الشيء، وأبدى اهتمامه بالسؤال، ولم يكن سريع الإجابة كعادته، وراح يعتصر ذاكرته، وفي النهاية لم يستطع أن يتذكر أي كتاب مشترك في التراث العربي، فقال أحد الطلاب: رسائل إخوان الصفا... فقال الدكتور خالد:

إنها رسائل قد تكون مشتركة الأفكار والمبادئ لأنها تعبر عن رأي جماعة، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة لغوية أسلوبية في الرسائل جميعها حتى نتبين الأنماط المؤتلفة والأنماط المختلفة في هذه الرسائل.

يبدو أن مالك قد بدأ يتأثر بأسلوب الدكتور خالد، ويتقمصه، ويبدو أنه بدأ يطبق أسلوب أستاذه في تحليل الشخصيات على الدكتور خالد نفسه، فالدكتور خالد الذي لم يتقبل تنازع روائيين اثنين في كتابة رواية واحدة، فكان نسيج وحده! لا يشارك أحدا في الحكم والأحكام، ويأبى أن يشاركه أحد؛ لقد لاحظ مالك أنه كثيرا ما يكون في مكتبه وحيدا إلا من قراءة كتاب، أو كتابة بحث، أو محاولة استخراج معلومة من الشبكة العالمية للمعلومات، والطالبات اللواتي يحاولن رفع علاماتهن برفع فساتينهن، وإبراز صدورهن بكل فخر وكبرياء، ويحاولن قضاء حوائجهن الداخلية والخارجية عند بعض ما يسمى بالأساتذة، لم يكن لهن مكان في مكتب الدكتور خالد، بل ربما مررن على عجل من أمام مكتبه، وإذا ما دخل طالب يسأله عن أمر كان يرد عليه بأدب واحترام، وبشكل رسمي أيضا، فيفهم الطالب أنه منشغل، فيغادر مكتبه، أما وجود الأساتذة من زملاء الدكتور خالد في مكتبه فقليل جدا، أما أن يُرى جالسا في مكتب أحد الأساتذة فهذا من الصعب البت فيه!

لم يكن يعرف سوى القراءة والكتابة والحديث بما يتعلق بهما، مرة... في ساعة غضب منه على طلابه قال: أنتم طلاب الدراسات العليا يجب أن تقرأوا سبع ساعات يوميا، ما الذي يشغلكم؟ أنا إذا قرأت في اليوم خمس ساعات أعد نفسي مقصرا.

كانت آراؤه نابعة من قناعاته، وكتبه وأبحاثه هي نسيج عقله وقلمه، فيرفض أن يشاركه بها أحد، وحتى المشاركة في الفعاليات والمؤتمرات والندوات لم تكن تشغل باله، وإذا لم يكن المؤتمر ذا فائدة علمية بحتة، لم يهتم حتى بالحديث عنه، ولم يكن يسعى إلى المال أو الشهرة.

كان محض كتاب، ومحض فكرة.

من أجل هذا قال مالك في نفسه: يرفض الدكتور خالد فكرة أن يكون هناك كاتبان لكتاب واحد، أو روائيان لرواية واحدة. لكن، هل يمنع هذا من دراسة فنيات الرواية أو حتى عيوبها؟ تذكر مالك أن الدكتور خالد قال لهم في مادة مناهج البحث: بعض الزملاء يقولون لي إنهم يكتبون بحثا ولا ينتهون منه، ويبدأون ببحث آخر، وهكذا تتعدد البحوث غير المكتملة عندهم، أنا شخصيا لا أبدأ ببحث جديد إلا إذا أنهيت البحث الذي بين يدي...

«عالم بلا خرائط» عالم من الكآبة والظلم... إنها مرتع خصب للحديث عن الهزيمة، هزيمة الذات وهزيمة المجموع... ورغم نسيان مالك أحداثها وتفاصيلها عبر السنين التي مرت على قراءتها، إلا أن ظلامها مايزال -كلما تذكره- يغلف الأفق من حوله!

(١١)

على غير عادته صار الدكتور خالد يخص أحمد بمحاولة استفزازه وممازحته، ويوقظه من غفلته بدعابة وابتسامة نابعة من القلب. لم يكن أحمد أول طالب عاشق يدخل قاعة الدكتور خالد، ولكنه رأى شيئا في أحمد لم يره في أي عاشق آخر: إنه الصدق.

شعر الدكتور خالد أن أحمد صادق في حبه، ويبدو أنه قد استطاع أن يرد أستاذه إلى أيام صباه وشبابه، فمتى وجد الدكتور خالد فرصة للحديث عن الحب كان يتصيدها، وكان يزركشها بقصة أو ببيت شعر فيقول: يستطيع العاشق أن يكتم اسم معشوقه، ولكن هيهات أن يستطيع كتمان عشقه، يقول الشيخ ابن عربي:

صَحّ عند الناس أنيَ عاشقٌ غيرَ أنْ لم يعرفوا عشقي لِمَنْ

فابتسم أحمد ابتسامة الرضا، وابتسم الدكتور خالد، ولم يفهم أحد شيئا...!

بعد انتهاء المحاضرة، اقترب أحمد من مالك، وقد ظن مالك أنه يريد أن يحضر له كتابا كباقي الطلاب، ولكن أحمد بادره قائلا:

- أكيد أنك تحفظ شعرا في الغزل، وأريد أن تزودني ببعض الأبيات أو القصائد.

عندها أدرك مالك أن الفتى يتضور حبا، فقال له:

- اكتب عندك:

أبـداً تحـنُّ إليـكُمُ الأرواحُ ووصالُكُم ريحانُها والـرّاحُ

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ

واحسرتا للعاشقين تكلّفوا سَتْرَ المحبة والهوى فضّاحُ

بالسر إن باحوا تُباحُ دماؤهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ

- حلو... والله حلو... شيء آخر؟

- اكتب... (ولم تكن نشوة مالك بأقل من نشوة أحمد، خاصة بعد سماعهما ما سمعاه من الدكتور خالد عن الحب):

خيالُك في عيني وذكرُك في فمي

ومثواك في قلبي فأين تغيبُ؟

- بصراحة... أريد أن أهدي خطيبتي هدية، وأريد أن أكتب لها شعرا يتحدث عن الهدية والحب، وأنت أدرى بهذه الأمور.

لم يتمالك مالك نفسه، وانساب في لحظة وجد، وقال دون أن يقول له اكتب:

أتتْ سليمانَ يومَ الحشرِ قُبَّرَةٌ ... تُهدي إليه جرادا كان في فيها

فاسترسلتْ بلسان الحال قائلةً ... إن الهدايا على مقدار مُهْديها

لوكان يُهدى إلى الإنسان قيمتُه ... لكان قيمتُك الدنيا وما فيها

صار لزاما على أحمد أن يتخلص من مالك الآن، فناداه مالك قائلا: قل لها يا أحمد:

سيصير حلوى

إذا جبلٌ نحوهُ

قد أشَرتِ

ابتسم أحمد ابتسامة الشكر والرضا، وظل مالك الحزين حزينا، يتذكر حاله التي ترحل به من خسارة إلى خسارة!

(١٢)

في الوقت الذي لم يعد الحديث فيه عن انتحار الدكتور فالح ذا أهمية بعد نسيانه أو تناسيه من قبل الكثيرين، كان الأمر يتفاقم في نفس مالك، ما هذه الشجاعة التي اضطرمت في أوصال الدكتور فالح ليخسر في لحظة أحب نفس إلى نفسه؟

في الأيام الأخيرة من حياة الدكتور فالح أسرَّ لأحداهن قائلا: «إني أكتب مذكراتي هذه الأيام» وماكتبه قبيل انتحاره لم يعش في رحم الأسرار إلا قليلا من الليل... ومما كتبه قبيل انتحاره:

«من عادة كافكا في مذكراته أن يصف تجربة ما، ثم يعود فيصفها على نحو آخر، ثم يكرر الوصف على نحو ثالث، ويستمر في ذلك أحيانا لأربع أوخمس مرات. لعله يحاول كل مرة أن يوجد لتجربته الوصف الأفضل، الذي يعتقد أنه لن يحققه بمحاولة واحدة، فيكررها، ولكنه يبدأ كل مرة على نحو جديد، وما يسهبه من تفصيل في المحاولة الواحدة يوجزه في المحاولة الأخرى، مسهبا في ناحية أخرى. وهكذا».

كانت هناك رسالة موجهة إلى زوجته، ومما جاء فيها:

«رسائل المنتحرين صادقة في الأغلب، ولكنها قد تكون صادقة أكثر مما ينبغي، كأن المرء يرى شيئا دقيقا جدا تحت عدسة المجهر، فيرى كل شيء مضخما متحركا، متلولبا. الرؤية صادقة ولكنها مكبرة مليون مرة، ولكن هل هي «حقيقته» حين تفقد صلاتها النسبية بالواقع؟

رسائل المنتحرين إذن لعلها أيضا «كاذبة» تضخيم للدقائق التي إذا ما ضخمت اضطربت دلالاتها، لأنها معزولة عن مئات الدقائق والكبائر الأخرى.

تعلمين كيف كنت أرفض قراءة الجرائد، وسماع الراديو، ورؤية التلفزيون. لا لأنني كنت أقطع الصلة بالوقائع التي حولي، بل لأنني كنت أريد التركيز على تجربتي الشخصية للأمور، للعلاقات الإنسانية، التركيز على رأيي أنا، التركيز على كلمات الكتب المدروسة التي تعنى بالديمومة، لا على الكلمات اليومية التي تتهافت على كل شيء آنيٍ تهافت الذباب على القاذورات، أردت أن أبقى نقيا، نظيفا...».

آخر ما قاله: «... ربما غدا. ولكن الساعة قد أزفت، ومن السخف أن أماطل أكثر. عجيب، هذه أول مرة أستطيع أن أقول فيها صادقا: إني أشعر بارتياح، بضع حبات وينتهي كل شيء... دود، دود...»

كانت رسائل الدكتور فالح كلها في متناول الدكتور خالد، وكذلك الطلاب، كانت رسائل طويلة ولا تخلو من العمق، كيف لا، وهي رسائل منتحر، ومثقف في آن، ولكن الدكتور خالد لم يحفل بها كثيرا، ربما عدّها موضوعا طارئا على موضوع «الرواية»، ولكنها ليست موضوعا طارئا على موضوع الانتحار، لماذا لم يصب جام علمه على رسائل هذا المنتحر المظلوم، خاصة وأن الظلم والقتل والانتحار صار يواجهه وطلابه كل أسبوع، حتى ذلك اليوم الذي علقت فيه الدراسة في الجامعة، كان يوما داميا!

(١٣)

تلقى مالك هاتفا من فارس يخبره بأنه قد تم تعليق الدراسة هذا اليوم، فظن أن الدكتور خالد لديه ظرف معين، فقال فارس:

- أقول لك تعليق الدراسة، يعني أن الجامعة كلها غائبة.

- ومنذ متى كانت حاضرة يا فارس! يعني سنرتاح هذا الأسبوع، وفي الأسبوع الماضي تغيب الدكتور خالد، فها نحن مجازون لمدة أسبوعين.

ربما كان مالك -على حبه لمحاضرات الدكتور خالد- من أكثر الطلاب فرحا بهذا الخبر، إنها فرصة للراحة، فرصة للدراسة، ومحاولة للحاق بالمادة، فرصة أيضا للذهاب إلى البيت، وتناول طعام يختلف تماما عما يأكله في المطاعم دائما.

تابع فارس كلامه:

- التخلف الموجود في الجامعة لا يوجد في أي مكان آخر...

لم يكن هذا الكلام يحتاج إلى ذكاء كي يفهم ما وراءه، فقال مالك:

- مشاجرة جديدة في الجامعة...

- وأخبار عن مقتل طالب.

- وهذه المرة من أجل فتاة أم من أجل القبيلة؟

- والله لا أعرف، يقولون إنه من أجل فتاة، ثم تحولت قبليّة، وكل واحد أحضر جماعته.

راح يفكر في هذا النظام التربوي الذي يأوي إليه الطالب اثني عشر عاما قبل الجامعة، ثم أربع سنوات جامعية، ولا ينجح هذا النظام في استئصال أورام العصبية المنتشرة في صدور طلابه، لم ينجح هذا النظام في تعليم الطالب ألف باء المحافظة على الأثاث المدرسي والجامعي، ولم ينجح في تعليمه التعبير عن رأيه علنا وصراحة بدلا من اللجوء إلى الحمامات ليبث الطالب فيها شكواه وتذمره، ويكيل اللعنات على أستاذه ومن هم أعلى من أستاذه منصبا، أو ليعبر عن حقده على حبيبته التي ذهبت إلى غيره، فيبدأ بالتشهير بها، وكتابة رقم هاتفها على أبواب الحمامات مع التعريف بها وبصفاتها وبكيفية ألاعيبها.

أي نظام تربوي هذا الذي يبدأ الكذب فيه منذ أول يوم دراسي، حين يظهر الوزير في مؤتمره الصحفي ليقول: الدراسة الفعلية تبدأ منذ اليوم، اليوم الأول، الكتب وصلت جميع المدارس، وبأعداد تزيد على أعداد الطلبة، ولا يوجد نقص في المعلمين، وقد عالجنا مشكلة التعليم الإضافي، وتفقدنا جميع الأبنية المدرسية خلال العطلة الصيفية، وقمنا بعمل الصيانة الكاملة لكل المدارس والمرافق التي تحتاج إلى صيانة.

ليس عجيبا بعد هذا وغير هذا الكثير الكثير أن تقوم مشاجرة بين مئات الطلاب من أجل فتاة، بل إن الهواتف النقالة بدأت تتناقل مشاجرات بين طالبات من أجل شاب!

ليس عجيبا أيضا أن يصل المدرس الجامعي إلى رتبة «أستاذ» من خلال أبحاث مسروقة، ويقدمها لنيل الدكتوراة، أو للحصول على رتبة علمية، كما حصل مع بطل الكنانة...!

ليس عجيبا أيضا أن يصعد الطلاب سفينة الدكتور خالد ولا يستطيع أعلمهم أن يعدد أسماء روايات خمس! فعلى مدى اثني عشر عاما دراسيا، لايكاد الطالب يسمع بشيء اسمه رواية!

نظر مالك إلى ساعته: ثمة وقت كاف للذهاب إلى البيت وتناول لقمة سائغة.

(١٤)

كان من المتوقع أن يتحدث الدكتور خالد بشيء عن مشاجرة الأسبوع الماضي، أن يقدم تحليلا بسيطا، وأن يشجب أو يستنكر، خاصة وأن الظلم لابد أن يكون موجودا في مثل هذه المشاجرات، فقد يكون الظلم واقعا على الضارب أو المضروب أو على من بينهما كائن، كالفتاة التي أشعلت الفتيل، وربما يكون الظلم واقعا على

الحرس الجامعي، ولكن الدكتور خالد لو تحدث في هذا الأمر وأبدى رأيه؛ فإنه لن يقول بأي حال من الأحوال إن إدارة الجامعة مظلومة، إنه يعرف في قرار نفسه أن إدارة الجامعة وأن المسؤولين الكبار هم دائما ظالمون، وهم في النهاية الخصم والحكم.

لا يمكن للدكتور خالد أن يقول غير هذا، إنه يقول هذا في كل أسبوع وفي كل تحليل لرواية، يقوله مغلظا ومبطنا، يسقط أحداث الرواية على الواقع المعيش، فإذا بهما وجه واحد لعملة واحدة. ولكن الغريب أنه لا يتحدث عن الواقع ولا ينظر إليه بشكل مباشر!

كان مالك يعد سؤاله الآتي للدكتور خالد:

- لماذا لا يتم الإعلان عن الأسماء المتورطة في مثل هذه الأعمال، ولماذا لا يتم الإعلان عن الإجراءات المتخذة بحقهم؟

كان في نفس مالك إجابة غير شافية عن هذا التساؤل، ولكنه كان يحب أن يستمع إلى المزيد من الدكتور خالد، فهو على كل حال أقرب إلى الرسميات الجامعية، وأقرب إلى ما يهمس به زملاؤه، وهو أيضا يمتلك الأسلوب العلمي المنطقي الذي يجيب به عن هذا السؤال، ولكن الدكتور خالد كان يسقط أحداث الرواية على الواقع، ولم يكن معنيا بمقارنة الواقع بفنيات الرواية ليسقطه على أحداثها.

كان مالك يعرف أن هناك أسبابا كثيرة تمنع من إعلان أسماء الطلاب المتورطين، وإعلان الإجراءات المتخذة بحقهم، منها على أقل تقدير أن يأتي أحد المتورطين البارزين بمسؤول رفيع المستوى ليعيده إلى الحرم الجامعي، ويرفع عنه العقوبة، ويغسل سجله بالماء والثلج والبرَد... ويضلل الناس بأسماء المتورطين؛ ويعطي إدارة الجامعة حرية الرفض والقبول.

توالت المشاجرات في هذا الفصل الدراسي على غير العادة، ولكنها مشاجرات كان يمكن السيطرة عليها وإخمادها في مكانها، باستثناء تلك التي تم يومها تعليق الدراسة.

وقد حدث ذات يوم في سمائه لون الشتاء، وفي هوائه هدوء الربيع ومابينهما كسل الخريف، والشمس تسحب خيوط احمرارها شيئا فشيئا وهي على وشك الغروب، حدث أن سمع مالك صوتا حادا تردد صداه في جنبات الجامعة، لم يعره انتباها إلا عندما سمع فارس يقول:

- إكوي...

وقبل أن يسأل... سمع صوت فتاة... ثم رآها تصيح بأعلى صوتها:

- يا كلب... يلعن أبوك.

فقال فارس:

- لطخها على وجهها لطخة...؟!

سأل مالك:

- مَنْ...؟!

- ذلك الطالب...

اضطربت الطالبة بعد ذلك وهي تتردد مابين اللحاق به، أو سبه عن بعد، لكنها لم تستطع اللحاق به، ولكن الذي غاظها أكثر أنه كان يرد عليها الكلام الذي توجهه إليه، بل كان يزيد عليه كلاما أكثر سفالة، تعلمه خلال وجوده سنين طويلة على مقاعد الدراسة.

لو كانت هذه الصفعة قبل ساعتين أو ثلاث من موعدها، لربما قطعت رؤوس... اقترب مالك من الفتاة قليلا دون أن يشعرها بأنه يعلم بمصابها، كان احمرار وجهها أشهى من التفاح!

(١٥)

في هذه المادة كان من عادة الدكتور خالد أن يتأخر من ربع ساعة إلى نصف ساعة، وقد كانت مدة المحاضرة ثلاث ساعات، وفي أحد الأيام التي طال انتظار الطلاب فيها لأستاذهم حرض مالك زملاءه على الهروب من المحاضرة، فوجد تأييدا من الجميع إلا من طالبتين، هما اللتان كانتا تحضران وكانتا دائما مستعدتين للمناقشة.

انقسم الطلاب قسمين: أما الأول فمجموعة الطلاب الذين كان إقناعهم بالهروب سهلا، وأما المجموعة الثانية، فمجموعة الطالبات اللواتي كانت وجوههن مشوبة بالخوف والخجل.

كانت فاطمة أشجعهن هروبا، وأكثرهن غيابا، وأقلهن اهتماما، لقد كانت ظلا خفيفا على الأرض؛ أينما حل ارتحل...

نصف ساعة تَمُرّ، والطلاب يفرحون سنة كلما مرت دقيقة، بعد أن أيقن الجميع وتيقنوا من غياب الدكتور خالد، حضر وهو يزيد من سرعته ليصل مبكرا، مر بجانب الفتيات ولم ير أو يلحظ واحدة منهن أمامه، أما الطلاب فقد كانت جذوع الأشجار كفيلة بإخفاء وجوههم، وكانوا على مسافة أبعد من مسافة الفتيات.

تردد بعضهم وحاول التخلص من قرار الغياب، قال لهم مالك وفي صوته نبرة الغضب: الدكتور تجاوز وقته ولو غبنا لايحق له مساءلتنا، وما إن أنهى كلامه حتى لمح الدكتور خالد واقفا بباب الكلية، وقد رأى الفتيات فأشار بيده إليهن،

فتسللن واحدة تلو الأخرى، وكذلك فعل الشباب وهم مستعدون لسماع فقرات من التوبيخ، تتدافع إليهم واحدا تلو الآخر، دخلوا القاعة والدكتور واقف ببابها وهو شبه مبتسم ويقول: تريدون الهرب...!

الوحيد الذي حظي بالغياب الجميل في هذا اليوم هو أحمد!

قال الدكتور خالد:

الهروب أو الغياب من المحاضرات رغبة كثير من الطلبة إن لم يكن رغبة الجميع، فعبارة: «فليأخذوا نقودنا ويعطونا الكرتونة.» عبارة تتردد على كل لسان، وهذه واحدة من إخفاقات نظامنا التربوي الذي لا يستطيع أن يحبب العلم إلى طلاب الشهادات حتى في سن الطلب المتقدمة!

تغيب أحمد عن هذه المحاضرة، إذ كان على موعد مع خطيبته التي مافتئ الدكتور جواد يراودها عن نفسها، ويحاول استدراجها إلى مكتبه دون جدوى، فقد كانت حريصة، ولديها من الذكاء الاجتماعي ما يمكنها من التخلص من أي ضائقة أو تحرش، وهي التي فتنت الطرقات بجمالها وسحرها، وهذا ما شفع لها عند والد خطيبها ليوافق على زواج ولده منها، فقد كانت فقيرة، ووالد أحمد خامة مادية محضة، لا يعرف للمعنويات والوجدانيات معنى إلا بمقابل، وكان المقابل الذي شفع لرمز هو جمالها، ثم دراستها الجامعية، وقد قرر أن يعينها مديرة للعلاقات العامة في شركته بعد تخرجها في الجامعة.

كان أحمد صاحب ذوق رفيع في كل شيء إلا الدراسة والقراءة والثقافة، هديته إلى خطيبته، كانت أشبه بالخيال، مرآة محفورة بنبات الصبار الأخضر، هو الصبار وخطيبته هي المرآة، الصبر ينخزه كل ساعة، ولكن عليه أن يصبر حتى نهاية هذا الفصل المرير الذي تتخرج فيه حوريته وتصير زوجته ليلا نهارا!

قرأ لها أبيات الشعر المحفورة على مرآة صغيرة فوق المرآة الكبيرة، كانت الأبيات ملونة باللون الأخضر البحري، تماما كعيني رمز، كوجهها المرآوي، فتنة صوتها فتنة أخرى، طول أصابعها وامتلاؤها زبدة لم يمسسها بشر قط، أظافرها لؤلؤ الشرق، وحدُ سيوف العرب، معطفها الشتوي قط شيرازي، صدرها واحدة من هضبات بلاد الرافدين المكنوزة بالخيرات، طولها هندسة المنارات ومسطرة التكافؤ، ووحدة قياس الأفلاك! غموضها يختفي بين عينيها ونظارتها السوداء، وحين تزرع نظارتها في شعرها تزداد حضورا يتألق كالشمعة الملقاة في قلوب العارفين.

شعر فرنسي وعينان من اليونان، شفتان من الإسفنج الخالص، وخدان من مركبات الطين الأول، والمجبول بأصفى حفنة ماء من مطر الطوفان.

اسمها رمز، تحب الشعر وتدرس اللغات، ترى نفسها فوق ما يراه الناس، ولها محاولات في ترجمة الشعر الفرنسي، وصوتها بالفرنسية يجعل أحمد إنسانا متذوبا ومتذوقا لشيء مرتبط بالدراسة والثقافة، كان يحب سماع الراء الفرنسية منها، كان منحنى الراء مرسوما في فمها كقوس قزح، وكان أحمد يشعر وكأنها تملأ فمها بخوخ أحمر كالخوخ!

كانت هي الأخرى تحب أن تسمعه الراء الفرنسية لتجدها فرصة لقراءة الشعر الفرنسي، دون أن يعلم أن هذا شعر، كانت تجدها فرصة للحديث عن اللغات والشعر والثقافة، ولكنه سرعان ما كان يغير الحديث، كان يريد راء فرنسا وباريس وأوروبا... دون أي حديث ثقافي يفسد الراء وخلوة العاشقين.

حاول ألا يفسد فرحته بالهدية، لم يسألها عن سبب حزنها وهدوء وجهها، قرأ لها الشعر المحفور على المرآة، ابتسمت ابتسامة حقيقية، وسألته:

- من أين جئت بهذا الشعر؟

- أعطاني إياه زميل لي في محاضرة (الرواية)، وأعطاني أشعارا أخرى.. (ونظر إلى عينيها).

- اقرأها...

بدأت أسارير وجهها بالانفراج، واستمتعت بما قرأه أحمد، لولا أنه أفسد القراءة ببعض الأخطاء، طلبت منه المزيد فوعدها أن يأتيها بالمزيد عندما يلتقي مالك.

شيئا فشيئا، وبعد أن أبدت إعجابها بالهدية، عاد القلق يراودها، واعتلى بعض الشحوب بعض وجهها، وكانت تكابر وتحاول ما أمكنها أن تبدو قوية ثابتة العقل والحواس. ولم تعط الفرصة لأحمد كي يسألها، بل سبقته وقالت:

- اسمع يا أحمد، أنا أريد أن أنتهي من هذا الفصل على خير، بعد أن تمت خطوبتنا صارت أمي كثيرة الحديث عن زواجنا، الحال التي دخلت فيها الجامعة تغيرت الآن، أنا لم أعد أحتمل سماع كلمة «الجامعة». لقد تعرضت لمشكلات ومضايقات حدثتك عن بعضها، وصديقاتي في الجامعة كما تعلم قليلات جدا، بل يمكن أن يصلن حد العدم، والغيرة من جمالي واجتهادي، تنحت وجوههن وتفقأ عيونهن، وأنا بطبعي وطبيعتي أبحث عن صديقة تقدم لي علما، تشبع رغبتي في حفظ المصطلحات وسماع الشعر الفرنسي. وقد سئمت مكرهن وكيدهن للإيقاع بي في شباك الشباب والأساتذة الكرام...

- إذا كنت تريدين الزواج، فأنا مستعد خلال عشرة أيام أن نكون تحت سقف واحد، فوالدي لا يمانع، وهو ميسور الحال والحمد لله، ووظيفتي محترمة، وشهادتي العلمية لابأس بها، لماذا ننتظر حتى نهاية الفصل؟

- مشكلتك يا أحمد أنك تفهم نفسك، دائما الحل جاهز لديك، ولكنه حل ذو

بعد واحد، فعليك أن تنظر إلى بعد ثان على الأقل، وعليك أن تفهم الآخرين أيضا.

(بدأ القلق يساور أحمد ويعبث بأفكاره)

- الموضوع يا أحمد يتعلق بالدكتور جواد، أستاذ الصوتيات الذي حدثتك عنه، فمنذ أول محاضرة وعيناه لم تغادرا محيطي الذي أجلس فيه، وحين أشعره بعدم اهتمامي وانشغالي بأمر آخر، يتعمد إحراجي بسؤال عن تشومسكي أو الفونيم أوالتوليدية، وعندما لا أجيب يعمم الكلام على الطلاب ويصفهم بالكسل والخمول والغباء، بناء على قاعدة: إياك أعني واسمعي يا جارة...

قاطعها أحمد قائلا:

- أمره سهل.

- ألم أقل لك إنك تفهم نفسك فقط؟ الضرب والمشاجرات عواقبها أسوأ بكثير من عواقب المناورات والمداهنات.

- يارمز، المداهنات تنفع في كل الأمور إلا في مثل هذه الأمور.

- أنت تضربه، وتدخل السجن، وأنا أخسر الفصل وقد نخسر بعضنا.. ثم إن المراهنات ستكون مؤقتة، وبعد نجاحي عنده سيكون هناك تصرف آخر معه، وأنت تعرفني كيف كنت أتصرف مع أمثاله، لا تخف علي، ولا تجعلني أندم أني أخبرتك... إذا تمادى بعد ذلك فأنا التي سأتصرف، ولو استدعى الأمر وجودك فإنني لن أستغني عنك. المهم يا أحمد أن هديتك جميلة، والشعر المحفور عليها زادها جمالا في نفسي، دعنا نتناول الغداء يا أحمد، فأنا جائعة.

(راح أحمد يفكر ويفكر، وكلما فكر ازداد حقده على الدكتور جواد، وازداد

حبه الزمن وازدادت رغبته بها. إنه خطيبها، حلها وحلالها، فلماذا لا تسمح له حتى بالقبلة ؟! وكم سيطول هذا الفصل؟ قالها في نفسه وعقله وألمه، فأجمل الجميلات بين يديه، وهي شرعا زوجته، فلماذا هذا المنع والتمنع؟!)

- رمز

- نعم يا أحمد

- أريد منك شيئا وأرجو ألا تغضبي..

- أنا لا أغضب منك، اطلب ماشئت...

- قبلة!

(١٦)

«ما تبقى لكم» رواية غسان كنفاني الثانية، كان على مالك أن يقدم تحليلا لها في المحاضرة، ووجد مالك فيها بعض الثنائيات المرتبطة بأعمال غسان كنفاني الأخرى، أو ربما بأمور خارجة عن نطاق الأعمال الأدبية.

كتب كنفاني روايته هذه عام ١٩٦٤، أي بعد عام من صدور روايته الأولى «رجال في الشمس». وأضاف مالك:

- إذا كانت روايته الأولى «رجال في الشمس» تنتهي بمشهد الصحراء، فإن روايته الثانية تبدأ بمشهد الصحراء، ولكن ثمة علاقات تشابه وتضاد بين الصحراوين، ففي الصحراء الأولى، صحراء الكويت لم يصل الفلسطيني إلى مايريد، بل مات فيها، أما الثانية، صحراء فلسطين فإن الفلسطيني لم يصل إلى مايريد أيضا؛ ولكنه لم يمت، بل يقتل عدوه اليهودي، ويبقى مصير الفلسطيني (حامد) مجهولا.

وإن كان عبور الفلسطيني صحراء الكويت بدافع البحث عن الرزق، فإن عبوره صحراء فلسطين كان بدافع البحث عن الخلاص!

ومن المقارنات التي عقدها أيضا:

«مريم» شقيقة حامد التي حملت من زكريا النتن سفاحا، فحاول أخوها حامد قطع الصحراء إلى الأردن فرارا من كلام الناس وبحثاً عن أمه هناك.

لم يكن اختيار اسم «مريم» خبط عشواء من قِبَل كنفاني، فقد رمى بنو إسرائيل مريم أم المسيح -عليهما السلام- بالفاحشة، مع فارق التشبيه بين المريمين...

قاطع الدكتور خالد قراءة مالك وقال: ولكني لا أرى أنه يقصد مريم العذراء، أرى أنه يقصد مريم المجدلية التي زنت زمن السيد المسيح، ثم ذهبت إليه لتعلن توبتها أمامه، والذي قاله محمود درويش في قصيدة «مديح الظل العالي»: «اليوم تابت مريم عن توبة التوبات...» يقصد فيه مريم المجدلية، أكمل يامالك...

قفز مالك عن بضعة أسطر... وشعر أن أستاذه أحرق هذه الأسطر بماء النار، وأضاف:

تعد هذه الرواية من روايات وجهات النظر، فقد أعطى الكاتب مساحات لبعض أبطال الرواية ليعبر كل عن وجهة نظره، فعندما أرادت مريم أن تدافع عن نفسها على الأقل أمام نفسها، وتبرر خطيئتها مع زكريا النتن كما يسميه أخوها حامد... جاء الكاتب ليبدع في تصوير وجهة نظرها في مسألة الزواج، ففي «منولوج» داخلي تخيلت مريم فيه خالتها وهي توصي حامدا بأن يزوج مريم وتقول: «أنا أعرَف» و «أعرف» هنا اسم تفضيل، فهمت مريم ما تقصده

الخالة، فخرجت من الغرفة خجلى، في حين لم يفهم حامد هذا، لتتطور الأحداث بعد ذلك، فتقع مريم في الخطيئة، وتتطور الأحداث أكثر من هذا لتحمل أخاها مسؤولية الخطيئة أو جزءا منها، لأنه لم يزوجها، فكانت وجهة نظرها أنه سبب مباشر في وقوعها في الخطيئة، بينما كانت وجهة نظره أنها مجرمة، وكان يلعنها في نفسه، وكفلها زكريا، وهرب إلى المجهول.

أما حامد فقد عبر عن أشياء كثيرة تدور في داخله، نظرته من مريم، وزكريا، وأمه، وخالته، وعدوه اليهودي الذي استطاع حامد أن يقبض على أحد جنوده في الصحراء ويقتله، أما أجمل ما عبر عنه حامد وكان يسكن في جوفه، هو رؤيته لذراع أبيه الذي استشهد في يافا، ورآه محمولا على النعش مضرجا بدمائه، ولم يرَ منه سوى يده، هذا المشهد الذي ذكره بأبيه وهو صغير السن، حين دخل حامد عليه الغرفة نائما مع أمه فنهره أبوه بيده، ليقول حامد في وصف أبيه: «وأخذت ذراعه المتدلية بين الرجال عارية صفراء، تهتز جيئة وذهابا، كأنها تدعوني إلى اللحاق به» وفي مكان آخر يقول: «شهدتهما معا في السرير، أعتقد انهما كانا عاريين، ولكنني لم أر إلا ذراعه... هذا هو والدي كله، هذا هو، مجرد ذراع: مرة تضاجع أمي، ومرة مضرجة بالموت».

هكذا استطاع الكاتب أن ينقل لنا ببراعة نظرة حامد إلى أبيه، وإحساسه به.

ومما قاله مالك:

أما عن ضياع الأم في رواية «ما تبقى لكم» فهو أشبه ما يكون بضياع فلسطين، فعندما ركب حامد ومريم وخالتهما المركب، قالوا لهم: إن المركب لم يعد يتسع، وستلحق أمكم بكم في مركب آخر، فأخذهم مركبهم إلى غزة، بينما كان مصير

الأم أن تتجه إلى الأردن، وهذا أقرب مايكون إلى ماقيل للفلسطينيين: اخرجوا، وسوف تعودون قريبا...! فكان أن هاجر معظمهم إلى الأردن بلا عودة.

كان مالك يظن أن رواية «رجال في الشمس» هي أجمل ما كتب غسان كنفاني، خاصة وأنه شاهد «الفلم» الذي قدم أحداث الرواية، وهو فلم «المخدوعون» لكنه بعد قراءة «ما تبقى لكم» وجد فيها حقيقة المعاناة، معاناة الفلسطيني داخل وطنه، إضافة إلى التقنيات الفنية والأصوات المتعددة التي تداخلت في خلايا الرواية لتشكل عملا روائيا متكاملا قوامه أقل من ٢٤ ساعة.

قال الدكتور خالد:

غسان كنفاني كاتب فلسطيني متميز، استشهد وعمره ٣٦ عاما، وقد ترك أعمالا أدبية مهمة، تمثل في معظمها معاناة الشعب الفلسطيني، في مختلف مراحلها التي عاصرها وفي مختلف أشكال العنف والقهر التي مارسها الاحتلال.

الذي أريد أن أقوله لمالك: إن حديثك عن الساعة والزمن في هذا التحليل كان ينقصه قراءة رواية «الصخب والعنف» لفوكنر، لترى كيف تأثر كنفاني بهذا العمل، وكيف تأثر بموضوع الساعة بالذات، ولكن كنفاني استطاع أن يوجه ساعته وزمنه في هذه الرواية لخصوصيته، فكان متأثرا ولم يكن مقلدا.

أمر آخر أريد أن أقوله، وهو أن هذه الرواية تعد من روايات وجهات النظر، وقد أوضح زميلكم بعض وجهات النظر في الرواية، ومايهمنا هنا أيضا أن رواية «الصخب والعنف» لفوكنر هي من روايات وجهات النظر، وقد ترجمها جبرا إبراهيم جبرا في بدايات الستينات من القرن الماضي، وإذا كنتم تذكرون ما قلناه حول رواية «ميرامار» لنجيب محفوظ، وهو أن رواية «ميرامار» هي أيضا

من روايات وجهات النظر، وقد كتبها في منتصف الستينات أيضا، وهي روايته الأولى التي تعد من هذا النوع من الروايات. يمكننا القول بعد هذا، وبشيء من الحذر، أن ترجمة جبرا لرواية «الصخب والعنف» هي التي أدخلت أو أسهمت في وجود هذا النوع الروائي عند العرب.

الذي أريد أن أقوله: إن كنفاني قد طرح في هذه الرواية، قضية الهجرة عبر الصحراء، ولكنه لم يكمل الطريق، أو بمعنى أدق لم يقل لنا الكاتب ماذا جرى لحامد في النهاية بعد أن قتل الجندي اليهودي، فبقي أمر الشاب الفلسطيني معلقا كالساعة التي تدق وتدور بلانهاية، وكذلك هي القضية الفلسطينية التي تتقاذفها الأمواج من كل صوب وحدب، أمواج الحروب والانتفاضات والعمليات الاستشهادية في شاطئ، وأمواج الورق والسلام والاستسلام في شاطئ آخر.

أما بالنسبة إلى لزمن في هذه الرواية، فقد كان عنصرا بل بطلا، بل هو البطل الرئيس فيها، ومنذ أن بدأت النكبات تطرق أبواب فلسطين من كل الجهات، حتى قبل عام ١٩٤٨ والفلسطينيون يخسرون عامل الزمن الذي هو عامل من المهم اكتسابه في قضية كبرى كهذه القضية، وحتى هذه اللحظة الزمن يتفلت من يد الفلسطيني، فماذا فعل حامد عندما فقد الإحساس بالزمن؟ وقف وسط الصحراء ورمى ساعته فيها، بمعنى أن الوقت لم يعد يهمه... ولم يعد يملكه، ولم يحسن استغلال الزمن، فكبرت أخته وصارت عانسا فوقعت في الخطيئة، فأضاع على نفسه وعلى أخته فرصة الوقت!

إن الفلسطينيين لم يفهموا معنى كلمة «غدا» عندما قيل لهم: غدا تعودون... وحتى هذه اللحظة لم يعودوا، ولم يكسب الفلسطينيون الزمن يوما، لا في الحرب ولا في السلم، انظروا إلى نهاية الرواية؛ فبعد أن قتلت

مريم زوجها زكريا قالت عن الساعة: «تدق في جبيني إصرارها القاسي الذي لايرحم، تدق فوقه مكوما هناك قطعة من الموت، تدق.. تدق.. تدق»، وما زالت ساعة القضية الفلسطينية تدق!

(١٧)

بين الفينة والفينة، كان مالك يتردد على مكتب الدكتورة أمل، كان على معرفة بها من سنوات طويلة، وكانت تكلفه ببعض المهام ليقوم بها في العاصمة، وأحياناً كانت تعطيه بعض النقود ليوزعها على الفقراء.

كان أحيانا يحضر محاضرات النقد الثقافي التي تقوم بإعطائها لإحدى شعب البكالوريوس، كان يستأذن من أجل الحضور، وكانت الدكتورة أمل توافق له على مضض بسبب مناقشاته الطويلة على حساب وقت الطلبة المسجلين رسميا.

كانت الدكتورة أمل تستوعب مشكلات كثير من الطلاب، وتستمع إليهم، وقد لا تحل المشكلة، ولكن أسلوبها في التعامل كان يجذب الطلاب والطالبات إليها، ربما كان مالك الأكثر قربا منها بحكم معرفته القديمة بها، وبحكم بعض الأمور التي كانت تكلفه بها؛ كإحضار كتب لها من العاصمة، أو إرسال مقالاتها إلى الصحف والمجلات.

كان نقاش اليوم يدور حول كتاب «الحيدة» فقالت:

- كتاب يستحق القراءة، ولكن هذا لا يعني أن يقرأ بمعزل عما كتب وأُلِّف في مسألة خلق القرآن في تلك الفترة وحتى في الفترات اللاحقة، إلى يومنا هذا.

لقد كانت قدرة الإمام عبدالعزيز على الرد قدرة عجيبة، فقد كانت أجوبته مفحمة، وحتى المأمون كان يثني على كلامه. فلم يكن هناك دور للمأمون في

النقاش: بل كان دوره هو محاولة إنهاء الحوار الطويل بين عبد العزيز وبشر، كل كلامه: نعم... وماذا بعد؟ وما المسألة الأخرى؟ نعم هذا صحيح...وهذا ما يذكرني بجمهورية أفلاطون وحوارات سقراط فيها، سقراط الذي كان يمثل أو يؤيد السلطة، وبالتالي: فإن الجميع يؤمن على كلامه، ويعتقد به، ويؤيده في كل شيء، ومن هنا فإن جمهورية أفلاطون هي جمهورية السلطة وليست جمهورية الشعب.

لاحظوا أنه في كتاب الجيدة، السلطة كانت تؤيد عبد العزيز وهو الفرد المحكوم في كل شيء! لأن كلام عبدالعزيز مقنع أولا، وإن كان يخالف رأي السلطة في تلك الفترة، ولأنه في تلك اللحظة وهو بين يدي المأمون لايمثل خطرا على السلطة، وكانت فرصة للمأمون أن يحترم عالما كهذا ليشهد له هذا العالم بما نسميه اليوم «الديمقراطية» عدا عن أن المأمون كان يريد أن ينهي الحوار في أقصر وقت ممكن، ويتفرغ لأموره وسلطانه، وربما للنوم أو الصيد! منذ ذلك الوقت والسلطان يسير في المسار الذي يبقي على بقائه، والشعوب تسير في مسار الخبز والملح، بل قولوا منذ ما قبل التاريخ.

(قال أحد الطلبة):

- لماذا تعودين إلى ما قبل التاريخ والعالم كله الآن يحيا تحت هذا الشعار؟

- يا أخي... قل ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ وإلى الآن ما المشكلة؟ كل سلطان يفرح بسلطانه، منهم من كان عادلا ومنهم من كان ظالما، ومنهم من حاول العدالة، ولم يستطع.

(قال مالك):

- ومنهم من حاول الظلم ولم يستطع، لاشك أن هناك من لم تسعفه الظروف ليكون ظالما بالطريقة التي تشبع غروره وصلفه..

- ربما... إن كان لديك شواهد على ذلك..

- الديمقراطيات في عالمنا العربي اليوم، أليست شاهدا؟

- يا أخي، عالمنا العربي، وهذه حقيقة يعرفها الجميع، مازال حتى الآن يعاني من تبعات الاستعمار.

- تريدين الدفاع عن الحكومات والسلطات العربية كما كنت تدافعين عن إدارة الجامعة سابقا، نماذج مكبرة عن نماذج مصغرة، ومصغرة عن مكبرة، يكون أحدنا كادحا يلعن كل السلطات، وعندما يحظى بمركز ما يحاول أن يكون هو السلطة!

- ومن أكون أنا حتى أدافع عن الحكومة، صحيح أن إدارة الجامعة نموذج مصغر عن الدولة، لها رئيسها ونائبه ودوائرها وطلابها، وبطريقة أو بأخرى تعيش مشكلات تشبه مشكلات المجتمع إن لم تكن هي نفسها، ولكن لماذا إذا فشل الطالب يصب جام غضبه على أستاذه وعلى جامعته وإدارتها؟ وقد يتطاول أكثر من هذا ليصل الوزارة والحكومة...!

- لأنه يشعر بالظلم، الشعور بالظلم يلاحق شعوبنا العربية في كل مكان وزمان... هذا ما يقوله لنا الدكتور خالد كل محاضرة، ومانراه نحن على أرض الواقع. حدثني أحد كبار السن الذين هاجروا من فلسطين إلى هذا البلد عام ١٩٤٨ بأن الشعب في هذه الأرض قد استقبلهم بالبكاء والدموع، وقدم مايستطيع من الطعام والمأوى للاجئين، ومنهم من استضاف الناس في بيته،

أليس هذا مثلا حيا للمؤاخاة والمحبة بين الشعبين؟ لماذا لا ندرس مثل هذا التاريخ المشرق في مناهجنا وجامعاتنا؟

- كلامك جميل والله، ولكن أنا أسألك عن طالب فشل في دراسته، لماذا يضع اللوم على الأستاذ والجامعة مع أنه هو الفاشل... هو الذي قصر في الدراسة.

- لأنكم بذرتم فيه بذرة الإحباط ونمت فيه نموا سريعا. أنت تسألين عن شكوى الطالب الفاشل، وأنا الآن أسألك عن الطالب الناجح والمتميز... لماذا يشكو من الجامعة دائما؟

(رفعت إحدى الطالبات يدها وأجابت مالك بقولها):

- لأنه دائما -وألف خط وخط أضعه تحت كلمة «دائما»- دائما بالإمكان أفضل مما كان، ولكن الواقع وحال لسانه يقولان: دائما سيكون أسوأ مما كان. هذه الآلاف بل الملايين التي تجمعها جامعاتنا سنويا، تصرف على الوفود والمؤتمرات والحفلات والمناسبات والرحلات ورواتب الموظفين، ألا يمكن التخفيف من هذه المصاريف والاستغناء عن كثير من قنوات الإسراف في سبيل دعم البحث العلمي الجاد، سواء أكان ذلك للأساتذة أم للطلاب الجادين؟ قبل أيام نوقش أخ لي في رسالة الدكتوراة، كانت القاعة - والعفو منكم- لا تصلح لتربية... رطوبة قاتلة، وأثاث مستهلك، وإضاءة معتمة، عدا عن هذا وذاك؛ فإن الجامعة لم تكلف نفسها وضع مكبرات صوت للقاعة، فلم نسمع شيئا، خاصة أن أحد المناقشين قد تجاوز السبعين، بينما عندما يأتي وفد أجنبي تفتحون أمامه قاعاتكم الأثيرية، وتحجزون له الفنادق الفاخرة، بماذا يختلفون عنا يا دكتورة...

(قاطعها مالك قائلاً) :

- بالطين... يختلفون عنا بالطين، هم من الطين ونحن من الماء... هكذا يقول الدكتور خالد...

(رفع طالب آخر يده وقال) :

- ماهو دور الجامعات في توعية المجتمع من خطر استهلاك السهول الخضراء وزراعتها بالإسمنت والإسفلت والحجارة، مع العلم أن لدينا مساحات شاسعة من الصحراء... ألا يمكن استغلال الصحراء المجاورة للسهول في بناء المدن ؟ ألايحق لهذا الطالب أن يخرج من جامعته فيرى أرضا خضراء في وطنه ؟ وبعد هذا، ألا يحق للطالب الناجح الذي يفكر في مثل هذه المشكلات التي تؤرقه، ألا يحق له أن يشكو مجرد شكوى من جامعته التي تبني دوائرها وتقيم ملاعبها فوق هذه السهول التي كانت مورد القمح لروما قبل ألفي عام ؟

(وقال مالك دون استئذان) :

- ومن حق الطالب الناجح وغيره أن يروا أثر الجامعة في حياتهم الخاصة والمجتمعية، فالجامعة لاتساعد في تطوير الشخصية، فالشخصية تتطور بحكم تفاعلها مع المجتمع، وماتقدمه الجامعة من علم ومعرفة غير قادرين على التأثير ولو بشكل بسيط، بل إن تأثير الجامعة أحيانا يكون سلبيا، فيحاول الطالب أن يرقى بلباسه، ويرى نفسه أفضل ممن هم دونه في تحصيل الشهادات، والبحث عن الزوجة يجب أن يكون ضمن مقاييس جامعية، فيرفض العمل في أي عمل خارج عن محيط شهادته، فهو لم يتعلم في الجامعة حتى حب العمل وكسب الرزق، إلا كما هو مكتوب في شهادته! الجامعة بعيدة عن واقعنا يادكتورة، والواقع بعيد عن أسوارها... أحاول دائما أن أنظر إلى النصف

الملوء من الزجاجة لا إلى النصف الفارغ، ولكن... أقول كما قالت الأنسة قبل قليل، دائما بالإمكان أفضل مما كان...

- صحيح، ولكن دعني أسألك سؤالا... أنتم في رابطة الأدباء، وأنتم الوجه الثقافي الأول في البلد، أو هذا هو المفترض...

- صحيح...

- ماذا فعلتم؟

- لا شيء...

- علما أن أغلب أدبائنا من الفقراء والكادحين، فتجد بعضهم أينما يجد الفرصة للمداهنة والمواراة يقتنصها، فيراهن ويراوغ ويمدح ويرثي على حساب ما كتبه سابقا...

- وأحيانا كثيرة يكون على حساب ماسيكتبه أيضا...

- القائمون على قبول الأعضاء، عندما يقبلون شخصا كما سمعت منك، مقابل حفلة عشاء في مطعم فاخر، وأحدهم قدم لرئيس لجنة العضوية هاتفا نقالا للحصول على العضوية، وحصل عليها، أليس هذا ظلما وخيانة للأدب والمجتمع والوطن؟

- بلى

- الكتابات السخيفة التي يكتبها كثير منهم تحت مسميات نقدية وأدبية، والكلام المفتعل الذي يأتي تكلفا في غير مكانه، والذي يصور الجنس والسفالة ويصور الكتابة ويحولها إلى إباحة واشمئزاز، أليس هذا فذلكة ووقاحة؟ أرجوك لا تقاطعني... عندما تكون الشعارات الحزبية هي شعارات الرابطة على حساب الشعارات الأدبية والإبداعية، ثم لا يكون هنالك تطبيق

أو تفعيل لأي شعار للحزب أو للأدب أليس هذا من قلة الأدب؟ هناك فرق كبير بين أن تخدم الفكرة، وأن تستخدم الفكرة، ثم أجبني: قبول الفتيات المتبرجات السافرات عن مفاتنهن دون أن يكون لهن أدنى علاقة بالكتابة أو حتى بالقراءة...

انتهت المحاضرة ومالك يعقد مقارنة بين الدكتورة أمل والدكتور خالد:

الدكتورة أمل تسمح بالحوار والمناقشة بأريحية.

الدكتور خالد على مضض.

الدكتورة أمل تنزل بعالم المثل والخيال، إلى الواقع لتحل المشكلات والمعضلات بشكل منطقي.

الدكتور خالد يصعد بالواقع إلى عالم المثل والخيال، فيسرح بعقول الطلبة في سياحة جميلة بعض الوقت، ثم يلقيهم في اليم، ويتركهم وحدهم يصارعون التيار، ويحلق وحده عاليا، ولا يستمع إلى أية شكوى من طلبته.

(١٨)

شيئا فشيئا، أخذت معالم الرواية تتغير، وأخذت النظرة تختلف عما كانت عليه من قبل، فالأمر ليس سهلا، ليس مجرد قراءة فحسب، ثمة أشياء تتماهى وتتوارى بين السطور، التأني القليل يمكن أن يوضح بعض هذا التماهي، ربط الأجزاء ببعضها، ومحاولة وَأْم المتواريات يساعد في تركيب القطع المفككة بانتظام، لقد استطاع الطلاب أن يقرأوا كثيرا مما بين السطور، وإن كانت القراءات مخلولة مشوبة بنقص يساوي الزيادة التي لاداعي لها، إنما حاول بعضهم فنجح هنا وأخفق هناك، ولكن لو يطول هذا الفصل أكثر، لو تقرر هذه السفينة الرسو في ميناء أبعد.

كان الدكتور خالد يقرأ ماخلف السطور، وكان يأتي بما لم يتوقعه أحد، والسر يكمن في قدرته على ربط الأمور ببعضها من داخل الرواية وخارجها، يمسك بخيوط الأحداث والعناصر بمهارة الصياد الذي يعرف أين يرمي شباكه، وكيف يمسكها وكيف يجمعها ومتى، كانت ثقافته تسعفه كثيرا في فهم الأمور وتحليلها وفكها وتركيبها، فكان أكثر من أن يقال عنه أنه قارئ للنص، لقد كان قارئا، وقارئا ضمنيا متتبعا لقلم الكاتب، وسمعه وبصره وفؤاده، فكان يربط الأحداث بالتاريخ بالدين بالأسطورة بالواقع بالخيال بالرواية بالقصة بالشعر بالتراث بالحداثة بالسياسة بالفكر بالأحزاب باللغات...

لم يكن نمطا ولم يكن نمطيا، لم يكن تابعا، بل دائما هو المتبوع، ومع ذلك يجري ولايجرى معه، وكان يمزج في بعض الأحيان عددا من الروايات في حديث واحد بحيث يكوكبها في النهاية؛ لتصير في أعلى الهرم وكأنها رواية واحدة، ثم يسدل خيوطها إلى الأسفل لتشكل هرما متجانسا بعلاقاته وتقاطعاته.

ذهل مالك من إجابة الدكتور خالد، أمر ليس متوقعا، حتى لو كان متوقعا، فإنه لا يكون بسرعة البديهة هذه، كيف استمع إلى إجابة مالك وفكر ورد عليه في أقل من لحظة واحدة! هل يقرأ أفكار الآخرين وخواطرهم قبل أن تأتي على بالهم!

فبعد أن أنهت هناء تحليل رواية «ذاكرة الماء» للجزائري واسيني الأعرج، راح الدكتور خالد يدلي بدلوه، وراح يسأل عن العنوان وإيحاءاته، وإلى ماذا يرمز فأجابه مالك: «ذاكرة الماء» يعني النسل.

وما كاد ينهي الكلمة حتى ردّ عليه قائلا: قد ينطبق هذا على قول جبران:

إنما الناسُ سطورٌ كُتِبَتْ لكنْ بماءْ

ولكن سياقات الرواية وأحداثها من المستبعد أن تحتمل مثل هذا التفسير.

ما كان أسرع ما أجاب...

كان كثيرا ما يستعمل في كلامه ألفاظا من مثل: ربما، من الممكن، قد يكون ذلك صحيحا، من المحتمل... لم يكن يجزم في أمر، رغم قدرته على إقناع الآخرين بما يريد!

شيئا فشيئا أخذ مالك يحب عالم الرواية أكثر فأكثر، كل رواية عالم من الروايات، فأحداث تتشظى وأخرى تلتئم، شخوص تنمو وتحيا حين تموت، وتكون حياتها الروائية فاعلة بقدر مايكون موتها مؤثرا في مسار الرواية! كيف يملأ الروائيون هذه الصفحات الكثيرة، كيف ينزفون كل هذا الحبر؟ كيف يستنزفون أنفسهم في هذه المعاناة والمعاندة والمكابدة والمكابرة ؟ كيف يحتملون كل هذا الظلم ؟ كيف يتجرأون ويصنعون كل هذا الشر في أبطالهم، هل يحتمل الواقع انتهازيا مثل رؤوف علوان ؟ هل يحتمل الواقع خائنا مثل زكريا النتن؟ يشعل نار الغواية في مريم، فتحمل منه سفاحا، ويتزوجها ويضع أخاها تحت الأمر الواقع، يحاول أن يدل اليهود على سالم ليقتلوه، يطلب من مريم أن تضع حملها فورا، لاخشية الفضيحة؛ ولكن لأنه لا يريد أن يتحمل عبء معيشة هذا الجنين!

هل يحتمل الواقع هذا، هل يعقل أن يحتمل شرق المتوسط كل هذا القهر وكل هذا السواد؟ الرواية أصدق تعبير عن الواقع، أم أن الواقع هو أصدق

تعبير عن الرواية ؟ لو أن الدكتور خالد يفسح المجال أكثر للنقاش، لو يستمع ببطء، لو يكف عن المقاطعات والإجابات السريعة... منذ بدء الفصل الدراسي ومالك يتحين أن يسأله سؤالا ولا يجد الفرصة:

- مارأيك بمقولة: «أصبحت الرواية ديوان العرب»؟

كان حين يقوم بتركيب أجزاء السفينة لايسمح لأي صوت نشاز أن يتخلل عملية التركيب. كم كان مالك يتحين الفرصة ليسأله عن تكرار عبارة: «فريكيكو لا تلمني»!

ذات يوم، شعر مالك بالرضا عن الدكتور خالد حين كلفه بكتابة بحث عن المكان في رواية «أبناء القلعة»، رائعة زياد قاسم، كان مالك يحب هذا الروائي الذي تربطه به معرفة شخصية منذ سنوات، وكان يلاحظ علامات الرضا والإعجاب ظاهرة على محيا الدكتور خالد حين يتحدث عن هذا الروائي الجميل...

شيئا فشيئا، بدأ الضباب يلف السفينة من الجهات كلها... بدأ السواد يخيم على السفينة، فالغيوم تتلبد، ما من أحد إلا وفي نفسه حاجة لا يستطيع أن يبوح بها، دوران السفينة أو سفينة الدوران أمر صار معتادا، ولكن إلى أين، من يرى عيونهم يلمح فيها بريق السؤال، ولجلجة القلق، الوقت يمر، وهو ليس في صالح أحد، ما من قلب إلا ويخفق ولكنه مهما أسرع أو تسارع، فإنه لن يلحق ولو للحظة بدواليب الوقت.

السفينة تمخر عباب الزمن، لا تمل من ركابها الذين هم بحال انتظار، كانت تبدو على توافق تام مع ربانها، على مهلها، وعلى بحر صابَهُ الخدر، لا تمل من الترحال، لون من بعيد ربما هو فتنتها... الأخضر البحري الذي لا يزال يفتن

المرآة ويستلب الرخام، لا تيار أمامها، ولا موج إلا وينحني لمسارها... كل من عليها دان... دان... لبهائها وتاج وقارها... لهيبتها ومهابتها... كلما حاولوا العودة إلى تيار وعيهم، تملكتهم تياراتها الساحرة.

خمس عشرة نفسا مأزومة في جوفها، لا تستطيع التأخر عنها ولا الفرار منها ولا التقدم عليها، كل نفس ذائقة الخوف، كلما أبحرت وزاد العمق أسفل منها، تزداد الأنفاس، وتزيغ الأبصار، وتبتعد الشطآن... غريب أمر هذه السفينة، فعلى طول رحلتها؛ لا حنين فيها ولا اشتياق، في داخلها الجمال وفي محيطها الظلام، من يخرج منها فهو في ظلام حالك، ومن يدخلها فإنه لا شك هالك! ورغم ذلك... ستظل عروسَ السفائن

ربانها زَخَمٌ... قاوم كل التيارات حتى هدأت، أيقنوا أنه ربان ماهر، ولكن إلى أين يبحر بهم! مرة يأخذهم إلى عالم الخيال والماورائيات وفلسفة اللاأدريات... مرة إلى الأيديولوجيا في منتصف القرن العشرين، أخرى إلى السياسة، ثم يعود إلى هموم المجتمعات منذ البدايات حتى النهايات.

ربانها زمنٌ... زمن يحصي كل أصابع الأيام، لا يستريح ولا يقبل المجادلة أو المخاصمة أو المساومة، دعابته نابعة من أمور جدية، حتى الدعابة كانت تصل به إلى المآسي والآلام، كان يفهم كل شيء حوله ويقرأه ويحلله، كان أصحاب السفينة يدركون أنه يفهمهم، ويفهم ماوراء أفهامهم وماوراء علم نفوسهم، ولكنهم يستغربون من حديثه عن كل شيء، عن هموم مريم في «ذاكرة الماء» وهموم مريم في «ما تبقى لكم» وصورة مريم الحولاء في «أبناء القلعة» وعن مريم العذراء ومريم المجدلية... وكل المريمات المعذبات في كل الروايات!

لكنه لا ينظر إلى همومهم، لا يستمع إلى مشاكلهم ومصاعب الرحلة التي أكلت من عمرهم وشربت، من وجهة نظرهم كان يؤدي واجبا... من وجهة نظره

هو، كان يريد أن يعلمهم كيف يصطادون، لأن هذا أفضل لهم من وجبة شهية مشبعة وكفى! ربما يكون الدكتور خالد هو الوحيد الذي خرج من فلك المتنبي حين قال:

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

كانت الرياح تجري بما يشتهي هو، القلق الذي كان يراه في عيونهم كان يعرف أنه قلق يرسم أنصاف دوائر سوداء تحت الأجفان، لكنه كان يرى أن الأمر لا يستحق كل هذا «القلق» أما من وجهة نظرهم: فإنهم كانوا يرون السفينة مركز الكون وبؤرة التبئير فيه، من هذه السفينة ينطلق كل هم وغم، ولكنه إذا ابتسم تعود بشائر التفاؤل إلى قلوبهم، وترتسم على محياهم زهور الأمل، ولكنه سرعان ما يعود إلى قمرة القيادة، لتخفق القلوب من جديد، وتبدأ الأقلام تملأ حبرها من جرة الكلمات... وتكتب... تكتب... ولكن ماذا تكتب... وحتامَ...؟

الفجوة العلمية الكبيرة التي كانت بين الدكتور خالد وطلابه، هو أنهم ينظرون إلى مادته وكأنها بحر من ورائه سبعة أبحر، لا يعرفون بدايته ولا نهايته، كل ما يجيء به مستغرب وهجين بالنسبة إليهم، لم يسمعوا بكثير مما يقول، منهم من قرأ روايات لا تتجاوز أصابع اليد عددا، ولم تتجاوزها بوصفها محاولة، مجرد محاولة للشرح والتحليل.. والتفتيش بين السطور...

أما من وجهة نظره هو فإن هذا الذي يأتي به ماهو إلا أبجديات السرد وألفبائيات الرواية، فروايات كتبت منذ خمسين أو ستين عاما، ماهي إلا من سقط المتاع، من المفترض أن يكون طالب الدراسات العليا قد تجاوزها في بدايات سن الطلب، ومن المفترض أن يقوم بتحليل روايات الحداثة ومابعد الحداثة.

لقد كررها غيرمرة: كل واحد يأخذ الشهادة، ولكن ليس كل واحد يستحقها.

إن الطالب الجامعي ليس مثقفا، ولا يعرف كيف يتعامل مع ثورة المعلومات هذه، هذا إذا حاول التعامل معها، الأستاذ الجامعي لايعمل على تثقيف طلابه بأية وسيلة كانت، الأستاذ الجامعي نفسه قد لا يعمل على تثقيف نفسه، التنظير سيد الموقف، والتطبيق في ذمة الله! يأتي الطالب ليدرس مادة الشعر العباسي التي يمتد بها الزمن بضعة قرون، فلا يدرس سوى قصيدتين أو ثلاث! لا يختلف الأمر كثيرا عن محو الأمية.

لاشك أن الدكتور خالد كان من أكثر الناس إدراكا لمثل هذه الأمور، وكان معتادا على خمول الطلبة وتواكلهم، وإرجائهم الأمور وتأجيلها إلى اللحظة الأخيرة، لذلك لم يكن متشددا كثيرا في مسألة قراءة روايتين كل أسبوع، أو حتى رواية واحدة، كان يتكفل هو في كل شيء، يعلق على ما جاء به الطالب المكلف ثم يقوم بعملية التحليل ثم يبدي آراءه... وقد تكون هذه الأمور هي سبب انطلاقه في كل شيء دون أن ينتظر مساعدة أو نجدة من أية جهة كانت!

أول ما كان يفعله الطالب عندما يكلف بتحليل رواية هو النظر إلى عدد صفحاتها، ثم إلى خط الطباعة إن كان كبيرا أو صغيرا، وأحيانا قد يقوم بعد كلمات السطر الواحد! المشكلة أنه ما من أحد يعترف بهذا القصور وهذا التقصير، إن انقضاء الفصل الدراسي هو الإنجاز الذي يحققه الجميع؛ إن انقضاء السنة الدراسية هو إضافة شمعة إلى عمر الجامعة المديد الحافل بالعطاء وتخريج صناع المستقبل الباهر.

الفجوة الكبيرة هذه بين العلم الحقيقي ومحو الأمية ماتزال آخذة بالاتساع ليكبر هذا المجتمع الاستهلاكي، ويتعاظم شيئا فشيئا.

شيئا فشيئا، أخذ مالك يلمح أشياء غريبة، لم يلق لها بالا في بداية الأمر...

(١٩)

كان الدكتور خالد متأخرا كعادته، الطلاب يقفون على جانبي الممر يتحدثون، ويأملون لويغيب أستاذهم، ولكن، فجأة، وفي لحظة لم تمر بهم من قبل ران على قلوبهم الصمت الأقرب إلى الموت، زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، الأنفاس محبوسة داخل الأنفاس، حرارة الدنيا سرت بين المسافات القصيرة، الأحوال هادئة تماما، هي ذي اللحظة الأولى التي تتحد فيها مشاعر الطلاب وحواسهم، يتوحدون على قلب رجل واحد، لم يحسبوا حساب أن يحدث مثل هذا الأمر الفظيع، عيونهم وكأنها عيون جنود أزهقهم التعذيب فهم في النزاع الأخير، بدأوا لايشعرون بشيء، حواسهم معطلة منزوعة تسري وراء الماوراء، صمت الفلاسفة ودهشة الحضارة، قبضة الروح وحكمة الزهاد، لو يستمرون على توحدهم وتآلفهم وتفاهمهم هذا الذي أفسده وأفسد كل شيء فارس حين عبث بأرواحهم وزجاج صمتهم هاذيا:

- أووو ي ي ي ي ي...

أما هي... فيكفي القول أن مالك حين رآها تمر بينهم خرج عن قاعدته التي يسير عليها حين ينظر إلى النصف المملوء من الزجاجة، أما زجاجة العطر هذه؛ فقد أمعن النظر في نصفها الفارغ الذي يشغل أكثر من نصفها بقليل، خيل إليه أن ظهرها اللامع ماهو إلا قطعة قماش جاهزة للرسم الزيتي، وأضاف في نفسه: ويقولون إن الجامعات لا تعلم الفن ولا الرسم!! من الذي يزعم أنها لا تعلم الفيزياء ؟! «أول قطعة تفك آخر قطعة تركب» ويا لها من قطعة حين تفك، ويا لها من قطعة حين تركب، الغريب في هذه الحسناء أن أول قطعة لديها هي ذاتها آخر قطعة!

بعد أن مشت حتى آخر الممر، تعالت الأصوات، عادوا إلى صحواتهم بعد سكراتهم، وراح كل واحد يعبر عن شعوره ولاشعوره، وعن وعيه ولاوعيه، ويحكي ما رآه في غيبته، كان مالك يتمنى أن يكون الدكتور خالد حاضراحتى يراه مالك وهو يغض طرفا ويرسل آخر.

في هذه اللحظات حضر أحمد، كانت خطيبته إلى جواره، فتنة أخرى تدور في رؤوسهم، لم تكن محجبة، كانت تحتشم بوقارها، وشموخها، تمتلئ أنفة وكبرياء، ليست لعوبا كالتي مرت قبل قليل مثل عارضات الأجساد.

اتجه أحمد إلى مالكٍ وصافحه قائلا:

- خطيبتي رمز

- أهلا آنسة

- صديقي مالك

- أهلا أستاذ مالك، حدثني عنك أحمد كثيرا، الأشعار التي تعطيه إياها تنقل صورة ذوقك الرفيع.

- أشكرك آنسة رمز

- أنا أدرس اللغات...

حضر الدكتور خالد... فدخل الجميع، واستأذن أحمد من الدكتور فسمح له بالمغادرة، فسر أحمد من أستاذه؛ إذ لم يكن يتوقع أن يسمح له لكثرة تأخره وغيابه، ولكنه لا يعلم أن الدكتور يكن له في قلبه حبًا كأنه أحد أبنائه! فأحمد لا يعلم أن الدكتور يرى فيه شيئا مخبوءا في نفسه منذ عقود، ولذلك كان سماحه له بالمغادرة مشفوعا بابتسامة الرضا منه، حتى لاحظت رمز ذلك فقالت له:

- أستاذك لطيف جدا، لماذا تقول دائما بأنه جامد؟

- أحيانا يبدو وكأنه أبسط إنسان في الدنيا، وأحيانا يكون جبلا لا تهزه الريح! ولكني أشعر أنه يحبني دون سائر الطلاب.

- كيف هو مع البنات؟

- محترم والله، محترم جدا... هل تظنين أن كل الناس مثل الساقط جواد؟ يكفي أن الجميع يحترم الدكتور خالد، والجميع يشهد له بالعلم والمعرفة، والجميع يحسب له حسابا في القسم...

- جواد... اليوم أهملني وأهملته.

- أحسن.

- هل تعرف ماذا يعني هذا؟

- الرسوب.

- بالتأكيد.

- ألست واثقة من نفسك؟

- طبعا واثقة، وإن كانت المادة صعبة جدا، وليست لدي معلومات سابقة عنها، ثم إن رغبتي بها معدومة، أنت تعرف أنني أحب الشعر والأدب والانطلاق والفضاء، صرت أرى الرعب ماثلا بين عيني وعينيه، قد لا يؤخر زواجنا ولكنه سيقتل فرحتي وفرحة أمي وأهلي وفرحتك أنت.

- إذا فكرت بالأمر أبعد من ذلك، فسوف تجدين أن رسوبك سيكون ذكرى تجربة تعلمينها لأبنائنا في المستقبل.

- أصبحت تفكر من أبعاد مختلفة وبعيدة، صار تفكيرك جميلا!

- والله مجبر يارمز...

- كيف؟

- رمز...

- نعم...

- متى سأحصل على القبلة؟

(٢٠)

لم يكن ابتعاد الدكتور جواد عن طريق رمز هدوءا يسبق العاصفة، الدكتور جواد رجل يسمع كلام طبيبه جيدا، يجب أن يبتعد عن كل انفعال وعن التفكير في كل ما يمكن أن يستفزه أو يشعره بالغضب، الفحوصات الكثيرة المطلوبة منه تحتاج إلى صبر وتأن، الدكتور جواد كثير التدخين، كثير السكر، أوامر الطبيب هذه المرة كانت صارمة، يجب أن يترك التدخين وشرب الخمور، السواد يملأ الرئتين، كما شاهده الدكتور جواد نفسه في صورة الأشعة، شرايين القلب شبه مغلقة ربما تفصح الفحوصات القادمة عن التهاب في الكبد... لذلك التزم الدكتور جواد بكل ما أمره به الطبيب، بدأ يكثر من المزاح، ويكثر من قراءة الصحف الخاصة بالمرأة، ربما تعويضا له عن ممارسة الجنس التي حرمها عليه الطبيب أيضا، الدكتور جواد لا يستطيع الحياة دون الأنثى، ودون صورتها، دون خيالها أو حتى فكرتها، الأنثى عنده فكرة جميلة.

أما رمز فقد اتخذت مكانا قصيا في المحاضرة، لم تعد تكترث به حتى بعد رسوبها وإخفاقها في الامتحان الأول، ورغم أن الأسئلة لم تكن انتقامية إلا أنها كانت صعبة بعض الشيء، وعندما شعرت باليأس بعد الامتحان صارت دراستها أشبه بطواحين الهواء التي تدور مكانها، والإنتاج الفكري لدى رمز كان شبه معدوم.

كان مالك يتصفح كتابا بين رفوف المكتبة حين سمع صوتا جانبيا ناعما يقول له:

- صباح الخير أستاذ مالك

لقد كانت رمز، فوجئ مالك بها، آية من آيات الجمال تكلمه وحده دون طلاب

الجامعة، بل دون رجال الأرض كلها، ولكنه تذكر زميله أحمد، فظل لبقا في حديثه معها:

- أهلا، صباح الخير آنسة رمز

- أرجو ألا أكون قد قطعت عليك انسجامك مع الكتاب

- لا، أبدا... مجرد تصفح عابر

- أريد أن تدلني على المصادر التي تستقي منها الأشعار الجميلة، اختياراتك رائعة.

- المصادر كثيرة، ولكن الأمر الذي نفتقده في حياتنا الأدبية هو القدرة على الانتقاء، واختيار الأجمل من بين الجميل. أنا شخصيا أفضل شعر الرثاء، وخاصة رثاء النفس، أحب معلقة طرفة بن العبد، الذي رسم الموت وهو في زهرة شبابه رسما لم يرسمه زهير وهو في الثمانين!

- حتى شعر الرثاء الذي تنتقيه لاشك أنه سيكون جميلا، ليس مهما موضوع الشعر، بل المهم كيف كتب الشاعر شعره، بيت واحد قد يغني عن مجموعة دواوين...

- أترين هذه المكتبة؟

- يمكن الاستغناء عن نصفها... أليس كذلك؟

- بلى، وربما أكثر قليلا

- المهم يا أستاذ مالك، هل ستحضر حفل زفافنا أنا وأحمد؟

- إن شاء الله، أحمد طلب مني رقم هاتفي وعنواني البريدي ليبعث لي بطاقة الدعوة.

- أرجو أن تحضر، وهذه دعوة خاصة جدا.

(٢١)

كان فصلا طويلا على الجميع، باستثناء الدكتور خالد الذي كان كالسنة التي تستوعب كل الفصول بحرّها وقرها، الصيف على الأبواب، وسفينة الدكتور خالد تشهق من اقتراب الحر واقتراب كل شيء يبعث على الاستياء والإحباط.

- «اقترب للناس حسابهم»

قالها، وأضاف:

عند الامتحان يكرم المرء أو...

أعزكم الله ولا أهانكم، ستكون رواية «عمارة يعقوبيان» هي رواية الامتحان النهائي، اقرأوها جيدا، لديكم وقت كاف من الآن، أمامكم شهران...اقرأوا ما كتب عنها من دراسات، واقرأوا ما تيسر لكم وما استطعتم من معجم المصطلحات السردية مع التركيز على السرد والسارد وما يتبع السرد من مصطلحات، أي كل ما يتعلق بمادة «سرد» إضافة إلى «التبئير».

قالت هناء:

- إذا سمحت دكتور لو تعطينا نبذة أو لمحة عن هذه الرواية.

- كاتب هذه الرواية هو طبيب أسنان مصري، يصنع أحداث الرواية في عمارة اسمها «يعقوبيان» ويعرف بها وبتاريخها في روايته، يبني موضوع روايته على «الظلم»... ظلم المجتمع لنفسه، الأم لابنتها، صاحب العمل للفتاة التي تعمل عنده، ظلم الحكومة للشعب، واتهامات الشعب للحكومة، خليط من الخليط، يركز الكاتب على شخصية «طه الشاذلي» ذلك الشاب الطموح الذي يتمنى أن يصير رجل أمن، ولكنهم يرفضونه لأن والده حارس عمارة، فينقلب

من «مع» إلى «ضد» فينتمي إلى جماعة إسلامية متطرفة حسب تعبير الإعلام هذه الأيام، يقبض عليه رجال الأمن ويعذبونه دون أن يعترف على أحد من رفاقه أو أخوانه في التنظيم، يخرج من السجن حاقدا، حتى يجيء دوره في تنفيذ عملية اغتيال لأحد المسؤولين الكبار، كان متعطشا للانتقام، فقتل المسؤول وقتل هو أيضا.

الذي أريد أن أقوله، أو الذي يريد أن يقوله الكاتب: إن هذا الانتقام وهذه الحماسة لم يكونا من أجل الدين؛ إذ لو قبل طه الشاذلي في دائرة أمنية لربما كان جلادا، ولكن هذا الانتقام وهذا النضال كان لنفسه، لأنه ظلم عندما رفضوه بجهاز الأمن لأن أباه بواب عمارة، ولأنه تعرض للتعذيب والإهانة في السجن.

لاحظوا أن في كل ما درسناه من روايات لابد من وجود قضية، مشكلة، ظلم، معظم الروايات تقوم على الظلم، بعكس الشعر مثلا، فقد نجد في الشعر قصيدة قالها الشاعر يصف وردة، وفي الخاطرة كذلك، حتى في القصة القصيرة، أما الرواية فهي الحياة بمعادلاتها وتناقضاتها، أصلا... كيف تكون الحياة دون ظالم ومظلوم؟ فلولا الاستعمار لما فرح المعذبون والمستضعفون في الأرض باستقلالهم، هكذا هي الرواية، وهذه هي الحياة.

(٢٢)

كعادته دخل مالك محاضرة الدكتورة أمل في النقد الثقافي، وراحت هي تدلي بدلوها:

- الفصل الماضي جاءتني طالبة تستشيرني في أمر زواجها، تريد أن تتزوج زواجا عرفيا، وبعد جدال مرير عنيف بيني وبينها أقنعتها فقط أن تؤجل الأمر أسبوعا واحدا، لا لتفكر هي، بل لأفكر أنا عنها، ثم أسمح لها بهذا الزواج بعد

أسبوع، لقد كان التأجيل مشروطا بموافقتي، بمعنى أنه لو قلت لها لن أوافقك الرأي بعد أسبوع لتزوجت غدا؛ أي بعد أسبوع سأبارك لها زواجها!

انتبهوا جيدا... والدها متوفى، وأمها مريضة، وليس لديها أخوة، أو أخوات، وأقاربها تخلوا عنها، ومصدر رزقها خمسون دينارا من دائرة الرعاية الاجتماعية. وهدفها من الزواج هو علاج والدتها، فارس أحلامها غني جدا، ووعدها أن يعالج أمها في أمريكا، وأن يشتري لها سيارة. قلت لها فليتزوجك زواجا شرعيا علنيا أمام الناس، فقالت إنه رفض ذلك؛ لأن أباه يرفض زواجه من فتاة فقيرة، تماما كما تشاهده هي في الأفلام والمسلسلات، ولكنها تنسى كل شيء عندما تأتي طواحين الهواء وتتقاذفها من كل جانب. قلت لها هذا، ولكنها قالت بأنها تعرف أربع فتيات لجأن إلى هذا الزواج، وأمورهن على ما يرام!

(قاطعها مالك قائلا):

- ولو تساءلنا وقلنا: من هو المسؤول؟

- تريد أن تقول الحكومة، وإدارة الجامعة، أنت تريد من إدارة الجامعة أن تضع رقيبا وحسيبا على هاتف كل طالب وطالبة... ولنفرض أن الحكومة وإدارة الجامعة مسؤولتان عن هذه القضية، فهل نذهب الآن ونقول للمسؤولين أنتم المسؤولون؟ ثمة مشكلة تواجه الكثير من طالباتنا، كيف نحلها هذا إن لم تكن الفتاة قد دخلت بيت الطاعة، أو بيت المعصية بمعنى أصح؟!

(قالت إحدى الطالبات):

- إذا كان الأمر يتعلق بالمال، فعليك أن توفري لها المال حتى لا تقع في هذه المصيبة، الحلول المثالية لا تنفع في مجتمعاتنا، الحلول الجذرية هي الأنجى والأنجع والأنجح، كيف نحرر فلسطين ونحن نقول «الله أكبر» ملء السماوات

والأرض، ولا نعرف استخدام البندقية؟ كثيرا ما تستعمل الثنائيات في مواطن لا تحتاج إلا إلى العمل، لو جلست يا أستاذتي مع هذه الطالبة خمسين ساعة متواصلة لتزوجت خلال ساعة كما تفضلت حضرتك، ولكن لو استطعت أن توفري نصف علاج والدتها، لأجلت من تلقاء نفسها هذا الزواج شهرا، ولو استمر الدواء والعلاج لراجعت نفسها، وندمت على مجرد التفكير بهذا الأمر.

- ومن أين آتي لها بتكاليف تكفيها الذهاب إلى أمريكا؟

- إذن، ستتزوج الطالبة وأظنها لم تنتظر الأسبوع الذي وعدتك به.

- إذا كانت كل فتاة فقيرة ستفعل هذا...

- ليست كل فتاة فقيرة تفعل هذا، هناك فتيات باذخات تزوجن هذا الزواج.

- يا أبنائي؛ عندما كنت طالبة كنت بحاجة على الأقل إلى الحديث مع أستاذي أو أستاذتي، ولكن، لم تكن مشاكلنا هكذا، ما الذي يجري!

- الذي يجري أن طالب الجامعة يدخل مراهقا ويخرج...

- يا فؤاد دعك من هذه الكلمات النمطية المستوردة، أي مراهق ومراهقة، أنا لا أومن بهذه التقسيمات المبتذلة التي صدّرها إلينا الغرب باستعماره البغيض، سن الخامسة عشرة وما بعده ليس سن مراهقة، إنما هو سن التكليف عندنا في الإسلام، بداية الرجولة، دعك مما يقوله دعاة التخريب، أريد أن أفهم، كيف يكون ابن العاشرة عاقلا، وابن الخامسة عشرة بحاجة إلى عناية حثيثة، هل يتراجع العقل والفهم أم يتقدمان، هذه حيلة وانطلت علينا، عندما كان أجدادنا يتزوجون صغارا لم تكن هذه العقد ولا هذه المشكلات، ولا هذه الأمراض التي نراها اليوم، سن المراهقة ابتداع ابتدعه الغرب، ربما يكون صالحا عندهم

لأنهم يؤخرون سن الزواج، ويستعيضون عن ذلك بالجنس الحرام، يؤخرون سن الزواج ويطيلون أمد الدراسة، حتى الثانية والعشرين إلى السابعة والعشرين ثم إلى الثلاثين وما بعدها، لقد زرعوا فينا أن الشهادة هي كل شيء، جردونا منا ومن تراثنا ومن زراعتنا وانتاجنا، انظر كيف كان ابن السابعة عشرة يقود جيشا، أو يعيل أسرته وأمه وأباه وإخوانه وأخواته، ابحث لي في تراثنا كله عن كلمة مراهقة أو رديف لها بمعناها الذي يقصد هذا التخريب، صار سن الزواج عند الشاب أو حتى الشابة الثلاثين، من الطبيعي إذن أن تكثر المشكلات ووسائل إشباع الغرائز المحرمة، يا أبنائي كانت مشكلات الطلبة قبل خمسة عشر عاما حزبية وسياسية واعتصامات، انظروا الآن...

(قال أحد الطلاب):

- مرة أخرى... من المسؤول عن كل هذا وذاك؟ ما دور الحكومة؟ ما دور النقابات والمعارضة والأحزاب والهيئات الاجتماعية في حل آلاف المشكلات؟

- اسمعوني جيدا، إياكم ثم إياكم أن تقولوا إن هناك معارضة في هذا البلد... المعارضة الصورية التي نراها هي بمباركة الحكومة ذاتها، ما نراه من أحزاب يسارية ودينية وغيرها، كل هذا يسير تحت ظلال الحكومة وبمباركتها، لأن من مقومات وجود حكومة قوية وجود معارضة قوية، فما بالكم إذا لم تكن هناك معارضة من الأصل؟ المعارضون لدينا سريعو الذوبان أمام أبسط المغريات، كيف تفسرون مثلا خروج زعيم حزبي معارض من السجن ليصير وزيرا بعد أشهر؟ ما موقف زعماء المعارضة من ارتفاع الأسعار المخيف وهم يجلسون تحت قبب البرلمانات المتعاقبة؟

(قال مالك):

- دور كثير منهم المصادقة على رفع الأسعار... ومغازلة السكرتيرات...

- دورهم المصادقة على رفع الرسوم الجامعية وغيرها... كثيرون هم المناضلون الذين يناضلون من أجل أنفسهم، يحسبونها جيدا، لا يستطيعون تحقيق أمانيهم، وهم يشعرون بما يسمى في علم النفس بـ « تدني مفهوم الذات » فترة من السجن والحرمان من الوظيفة، وحجز جواز السفر، ثم صفقة مع الحكومة في وزارة أو سفارة أو عمل في مؤسسة كبيرة، وهم يعلمون أنهم في نظر حكومتهم مجرد أسطوانات غاز قابلة للتعبئة والتفريغ في أي وقت تريده الحكومة، لأنها تحتاج إلى أمثال هؤلاء ليكونوا أدوات وأبواقا في تسيير برنامجها الديمقراطي، الحكومة تريد أن تشتغل أمام العالم، حكومتنا أذكى من أن يستغفلها حزب فاشل، أومناضل كذاب أوكاتب ذو ألف وجه ووجه، حكومتنا تعرف كل هؤلاء وأولئك، وتعرف أن هناك حزبيين شرفاء لا تستطيع مساومتهم، فأنا لا أعمم ولا أخصص في كلامي هذا، وتعرف حكومتنا أيضا كيف تتعامل مع نفسيات هذا الشعب المثقف الذي يصاب بجنون البقر أو بأنفلونزا الطيور إذا ارتفع سعر مادة معينة؛ فيتهافت عليها تهافت الذباب... إذا أردت أن تصبح أو تمسي وزيرا فاشتم الحكومة وجَعْجِعْ قليلا، تجد نفسك في نعيمها ثم تلقيك في جحيمها...هناك حكومات تقتل بيد من حديد، وحكومات تقتل بيد من حرير، وحكومتنا لا تلجأ إلى الحديد إلا وقت الضرورة؛ لأننا شعب من السهل ترويضه وإشغاله ستة أشهر بموضوع زيادة خمسة دنانير على راتبه...

(قاطعها مالك قائلا):

- دكتورة أنت تهاجمين الحكومة وقت ما تشائين، وتدافعين عنها وقت ما تشائين...

- مالك... أرجوك...

- أرجوك أنت... اسمعي منا كما سمعناك حتى النهاية، لماذا مثلا لا تصبين جام غضبك على هذه الجامعة التي لا تقدم علما حقيقيا، والجميع يحصل على الشهادة فيها، دار أبي سفيان... من دخلها فهو آمن...؟ كيف سأقتنع بأستاذ جامعي يحجب كتابا له عن النشر لأن المبلغ المدفوع له لم يصل السقف الذي وضعه هو؟ مثل هذا التاجر عليه أن يقرأ سيرة إحسان عباس، الذي عُرض عليه المال الوفير مقابل استغلال اسمه اللامع بأسلوب تجاري، ولكنه رفض، وظل مخلصا لأمر اسمه «العلم».

(٢٣)

احتد النقاش بين الطلبة والدكتورة في القاعة، خرج مالك من محاضرتها غضبان أسفا، كان يريد أن يعلمها بمشكلته على الأقل، لم تكن تحتمل المزيد، السفينة تتسع لتخرج من قاعة الرواية إلى قاعات الحياة، الحياة كلها رواية، ولكن ضمن محاضرات عديدة، السفينة تتسع أكثر وأكثر، الرياح تتقاذفها من كل جانب، الماء يخرقها وينخرها ويذيب معالمها، إنها تذوب وتغرق شيئا فشيئا، أنقذ نفسك يا مالك، دعك من الآخرين، دعك من الدكتورة أمل وطالباتها، دعك من السفينة كلها، انظر هناك إلى الأعالي... الدكتور خالد يحلق... يحلق في السماء عاليا، «Google Earth» ينظر إلى مشكلات الأرض من خلال الرواية فقط، يحلها أيضا في الرواية، لقد غادر السفينة وامتطى طائرة الطيران... لا يتدخل في أمر إنسان سوى إنسان الرواية والخيال، لا يتعب من الحياة، لا تهمه الحياة كلها، الحياة هي الكتاب والشبكة العالمية للمعلومات، لماذا لا تكون مثله؟ سابحا في ملكوت الله، تنسى الأرض ومن عليها، المكان ضيق رغم أن السفينة تتسع، إلا أن الزمان يطول بنا ويأخذنا إلى مضائق مخنوقة، كلما

اتسعت السفينة وكبرت ضاقت مياهها لتصير المياه مضيقا لا ماء فيه ولا هواء، لم تعد هذه السفينة قادرة أن تجرح البحر، وحده الدكتور خالد يفهم اللعبة جيدا، لا تجاعيد في وجهه ولا هموم، لا سواد ولا شحوب، حتى الشيب القليل في رأسه جاء ليعطي شعره فرحة الأزهار وصبغة البرونز ولمعة اللازورد.

أما نحن الشباب، فقد خاطت الهموم أعيننا، فلا هي بيضاء ولا هي سوداء، ما الذي حصل اليوم، شيء لا يصدق! الجميع يسير إلى الهاوية، لا ليست صدفة، كل شيء مرتب ومنظم بوعي أو بلا وعي جمعي، ثمة خيوط خفية تحركنا كيف تشاء، ولكن بدراسة عميقة وعناية حثيثة، ما حصل معي وما سمعته الدكتورة أمل من طالبتها ليس محض صدفة، بل محض واقع مرّ مرير، كيف سنعيش وقد قصرت الآمال وإذا كانت الآمال قد ضاقت، فماذا عسانا نفعل؟ هل نوقف الزمن حتى تنتعش الآمال، أستاذتي الكريمة.. أنتم أساتذتنا كلكم بعيدون عنا، تريدوننا أن نحمل أفكاركم وأن نسير على هداكم حتى تتواصلوا معنا، لا تستطيعون مجرد متابعة السماع منا، عندما طلبت من الدكتور خالد كتابا في النقد الماركسي خفّ عقله وقال: هذه المكتبة يا أخي، الآن أستطيع أن أسمي لك عشرين كتابا، هل هذه مشكلة... تريدون كل شيء جاهزا، مارأيك أن أكتب لك البحث وتأخذ أنت العلامة! لا يادكتور، لا أريد أن تكتب لي بحثي، وأنت يادكتورة أمل ظلي فكري في حكومتك الرشيدة، أما أنا فسوف أنتهي أولا من مصيبتي...

- مرحبا يا مالك، والله يا أخي مللت، طال هذا الفصل كثيرا... صدقت يا مالك:

طالت حياتُك يا زمانُ ما عاد يرضاكَ المكانُ

مالَك يا أخي، حامل هموم الدنيا! أنا الذي يحق لي أن أتعب، يكفي أنك موظف، أريد أن أنتهي من الماجستير، أريد الوظيفة، تعبت يا مالك... أريد أن أتزوج، هل وجدت لي عروسا؟

- لو تأخذ وظيفتي وتخلصني منك ومنها...

- الدكتورة أمل غاضبة، وأنت غاضب، والله أعلم بأي وجه سيأتينا خالد أفندي اليوم!

قدم الدكتور خالد محاضرته، الطلاب حاضرون إلا أحمد الذي كان في موعد غرامي، حاول فارس أن يستأذن، ولكن الدكتور لم يسمح له، ومالك لم يشارك في أية كلمة طيلة المحاضرة، والدكتور لم يوجه إليه أي سؤال.

(٢٤)

أحمد ورمز، أصبحت معالم الطريق واضحة أمامهما، رسما بيت الأحلام، قاما بتسمية الأولاد والبنات، العمل الذي سوف تتسلمه في شركة والده هو «مديرة العلاقات العامة» الطريق بينهما إلى القبلة صار قريبا جدا، القبلة التي يطلبها أحمد كل لقاء ولا يحظى بها. الحاجز الوحيد الذي بدا واضحا وهو يتصدى لمسيرة الأحلام هو الدكتور جواد.

أما الدكتور جواد، فمنذ أن أكدت الفحوصات الطبية إصابته بالسرطان، وهو يخفي الخبر عن الجامعة كلها، فمحيط بيته فقط، هو الذي علم بالخبر، وأصر ألا يعلم أحد بذلك، صار هادئا جدا في محاضراته، ينظر إلى طلابه نظرة الوداع، ولكنه كان حريصا على ألا يشعرهم بأي تغير نفسي أو صحي نحو الأسوأ، حتى علبة السجائر فقد كان يحملها أمام الطلاب ويضعها على الطاولة وهم لايعرفون أنها فارغة، كانت فارغة حتى لا يغريه منظرها بالتدخين!

كانت رمز تتجاهله تماما، في نهاية إحدى المحاضرات تعمد الاقتراب منها، طلب منها الحضور إلى مكتبه لأمر مهم، كان في غاية الأدب معها، حتى كادت تبدو عليه علامات الضعف والانهزام، ولكنها لم تذهب.

بدأ يعد العدة للرحيل، كتب أسئلة الامتحانات لجميع المواد كانت أسئلة سهلة على غير العادة، أعطى ابنته سعاد الإجابات النموذجية، ولم يقيدها كثيرا بالإجابة، كانت تفهمه تماما، طلب منها إضافة خمس علامات لكل طالب ومن احتاج إلى علامة أو علامتين للنجاح فلا بأس لو أضيفت له مع العلامات الخمس الأولى.

شعرت سعاد بالحزن أمام هذه التنازلات التي يقدمها والدها لطلابه، وهو الذي كان يبحث عن كل صغيرة وكبيرة في أوراق الامتحانات، كانت سابقا تساعده في تصحيح الأوراق، ولكن الوضع النهائي للعلامة على الجداول كان من مهماته هو، بل لم يكن يسمح لأحد أن يطلع على الجدول قبل تعليقه أمام الطلاب.

ومع كل تنازل يقدمه الدكتور جواد في مسألة الامتحانات والعلامات كان يزداد قلق رمز، يئست وشعرت بالخمول تجاه هذه المادة، حتى انتقل الخمول والخدر إلى أحمد الذي لم يكن ينقصه شيء من هذا.

الأيام تمر سريعة، الطلاب جميعا يعانون قلق الامتحان، الامتحان هو طريق الطيران أو طريق الغرق والسقوط، هذا ما تؤمن به الجامعات والمؤسسات والوزارات، هو معيار الكفاءة ومعيار النجاح ومعيار القبول في الوظائف والأعمال، إلا في بعض الحالات والمحسوبيات والاستثناءات الشخصية تماما، الجميع خائف قلق، وكلما اقترب وعيد الامتحان ازدادت القلوب خفقانا واضطرابا.

ربما كانت رمز من أكثر الطلاب قلقا وخوفا واضطرابا، كانت شهوة الزواج والوظيفة والشركة والمال تطغى على تفكيرها، يجب أن تنجح، ولكن كيف يسمح لها كبرياؤها بالتنازل أمام جواد، لقد نزعت عنه في الفترة الأخيرة لقب الدكتور، كانت بينها وبين نفسها حين تفكر به تقول: جواد القواد، لو أستطيع أن أصل إلى ورقة الامتحان قبل يومين...! هل سيحرمني جواد من الثروة كما حُرمت منها بسبب حرب الخليج؟ لقد نخسر كل شيء في الكويت، عندما صار أبي يشعر بالغنى ويعرف معناه، عندما بدأ يجمع ما يمكن أن نسميه الثروة جاءت الحرب لتضعنا في أحافير الفقر والجوع، وها هو جواد القواد يريد أن يؤجل الغنى الذي يسعى إلي، وربما يحرمني منه إلى الأبد، فوالد أحمد لا يؤمن بأنصاف الحلول، وأحمد كلمة تخرج من فم أبيه، ولو قال له: طلقها... فسوف أكون في مهب الريح، مارغريت ميشيل بعظمتها لن تستطيع أن تكتب رواية عما يمكن أن أعصف به من عواصف وأعاصير، لو تناذل جواد وجعلني في صفوف الراسبين... ولكن لماذا لا أغازله بكلمتين وأعده مواعيد كاذبة، إنه ضعيف أمام أي إغراء؛ كلمة واحدة مني تجعله جبلا من هواء، وعندها أضمن النجاح والزواج والحياة والمستقبل والمال... سألحق بأخي رامز الذي يعمل في شركة أحمد منذ خطوبتي. بقيت أمامي فرصة المحاضرة الأخيرة، كلمة واحدة مني... ربما أفرد له شعري، مع وعد بالمزيد بعد النجاح، ثم أبصق في وجهه... المحاضرة اليتيمة الباقية، سوف أحسم فيها كل شيء، لماذا أتعب نفسي بالدراسة، المادة أسوأ من أن تدرس، لو أنها الشعر أو القصة، أو الرواية لما احتجت أية وسيلة، ولكن ليكن ختامها ما يكون، ثم أحيا حياتي.

كان الدكتور جواد في هذه الأثناء يبحث عن كتاب تعليم الصلاة في الأسواق، يبحث عن الفقراء أمام المساجد، يبحث عن الأيتام ليمسح على رؤوسهم، يتمنى

لو يستطيع الصيام أو أداء فريضة الحج، اشترى خزانة لوضع الأحذية في مسجد الحي الذي يسكن فيه. صار يقرأ القرآن في كل ساعة، عندما قرأ قوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ فاضت عيناه بالدموع، كان يتمنى لو يلتقي كل فتاة أساء إليها ليعتذر إليها، كان كثيرا ما يفكر برمز، قرر أن يعتذر إليها في المحاضرة الأخيرة، وكان كثيرا ما يقول لزوجته سامحيني، واعترف لابنته أنه كان مقصرا في جنب الله... صلي يا ابنتي والبسي الحجاب، يا سعاد كل نعيم الدنيا لا يعادل لحظة عذاب أو لحظة نعيم في الآخرة، يا سعاد هذه الدنيا استثناء، الحضور فيها استثناء، والغياب قاعدة، أنا مثلا، كنت غائبا ملايين السنين عن هذه الدنيا قبل أن أخلق، وغدا عندما أموت...

- لا بابا، لا تقل هذا...

- غدا عندما أموت سأكون غائبا إلى ما شاء الله، غيابا طويلا، إذن، هذا العمر القصير الذي عشته، سبعة وخمسون عاما، ماذا تساوي من عمر الغياب الذي غبته والذي سوف أغيبه عن هذا الوجود، إنه الاستثناء، فلماذا نضيع مصيرنا المحتوم من أجل لحظات استثناء ؟ انظري يا ابنتي إلى هذا...

أمسك قلما وورقة ورسم لها:

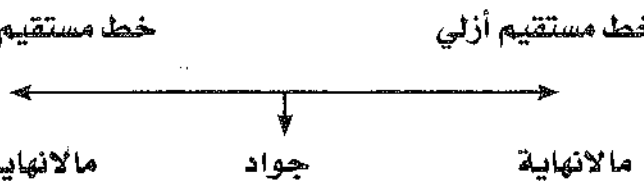

انظري يا ابنتي كم هو عمري بالنسبة إلى الزمن الذي غبته وبالنسبة إلى الزمن الذي سأغيبه؟ إنه لا يساوي لحظة، وكلما ازداد عمر الزمن وطال، قلّت

نسبة عمري في معادلة الحياة، ومهما عشت، فسيظل عمري يقصر مع امتداد الزمن، سبعة وخمسون عاما... انظري يا ابنتي:

$$\text{عمري} = \frac{٥٧}{\infty} \approx ٠$$

أي عدد على مالانهاية يؤول إلى الصفر، سبع وخمسون على هذا الزمن اللانهائي ستكون صفرا ذات يوم... يوما ما، سيكون عمري صفرا في حسابات الزمن، والذي يبقى هو الله يا ابنتي، الذي لا يقبل منا سوى العمل الصالح فقط...

أعفى لحيته، وصار يلاحظ نظرات الاحترام والتقدير من أبناء الحي في المسجد، فأين كان بعيدا عنهم، زاروه جميعا وهم يلاحظون عليه إشارات التعب...ولكن كيف سيكون اللقاء بينه وبين رمز في المحاضرة الأخيرة؟

(٢٥)

المحاضرة الأخيرة، جاء موعدها، القلوب تزداد خفقانا، إلا قلب واحد يخفق دونما قلق أو خوف أو اضطراب، إنه قلب الدكتور خالد، وعلى غير العادة جاء مبكرا هذا اليوم، كانت علامة الفرح والبشاشة واضحة على وجهه، كان متحمسا لمحاضرتين أو ثلاث، كل نفس تفسر سر هذا الانطلاق على محياه هذا اليوم، وكل تفسير يختلف عن الآخر!

«اعترافات كاتم صوت» رواية لمؤنس الرزاز، كانت خلود هي المكلفة بتحليلها، بعد أن أنهت التحليل قال الدكتور خالد:

- مؤنس الرزاز قدم مجموعة من الأعمال الروائية، وما لاحظته أنا في أعماله، أن أعماله الأولى كانت أفضل من الأخيرة، فمؤنس كان مسكونا

بهاجس الموت، كان في الفترة الأخيرة يركز على الكم أكثر من الكيف، كان يريد أن يسبق الزمن، وكان يريد أن يكتب وأن يعبر عن كل شيء، فصار يكتب لمجرد الكتابة.

عدا عن «اعترافات كاتم صوت» التي قدمت تحليلا لها زميلتكم خلود، فإن له اعترافات بعنوان «سيرة جوانية» نشرها في مجلة «أفكار» قبل وفاته، وتوقفت هذه الاعترافات حين توفي. إن عقدة مؤنس في الحياة كلها هي عقدة «الأب»، فهو يعترف في سيرته الجوانية أنه منذ أن كان صغيرا كان يرى أن أباه منيف الرزاز - الأمين العام لحزب البعث- هو الرجل الأول في الكون، ولكن عندما رآه ذات يوم يخضع لأوامر الشرطة الذين جاءوا ليعتقلوه وهو في بيته في عمان، فاستسلم لهم دون أدنى مقاومة، صار مؤنس يرى أباه رجلا آخر، فاهتزت صورته، تصوروا كيف كان أبوه أمينا عاما لحزب البعث، أي في رأس السلطة، يشرع ويأمر، ولكنه عندما حورب واعتقل من قبل حزب البعث نفسه صار مؤنس يعيش حياة البسطاء، أليست هذه مفارقات واضطرابات يورثها الأب لأبنائه؟ بلى، كما حدث مع الرئيس صدام حسين رحمه الله، الذي تحول من رأس السلطة إلى المطاردة وتشتيت أفراد العائلة، ولو أننا حاولنا ومهما حاولنا أن نتتبع طبائع العلاقات الأبوية مع الأبناء لما استطعنا حصرها، فمنذ فجر التاريخ وجدلية العلاقة بين الآباء والأبناء قائمة، وتعلمون أن أول حسرة هي حسرة آدم على ولديه اللذين قتل أحدهما الآخر، وبحسرة آدم هذه يضرب المثل، ندم على الخروج من جنته، ولكن الحسرة الكبرى على الأبناء. ولو تتبعنا القصص القرآني، وهذا أمر يحتاج إلى طلاب نشيطين جادين، يحاولون رصد صلات القربى في القرآن الكريم ودراستها ودراسة الحوارات التي تدهش

القارئ المتفحص، فلو تتبعنا بعض هذه القصص، لوجدنا أن علاقة الأب أعني الأب المباشر لا الجد أو العم، علاقة مشوبة بالحزن والأسى والأسف، كم حاول نوح عليه السلام مع ولده الكافر! كم خاف عليه من عذاب الله، ولكن دون جدوى، ومع ذلك ظل يحاول، وخصه بالدعوة حتى أتى أمر الله له بأن يكف عن دعوته، وانظروا إلى يعقوب وحزنه، لقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. وكم حاول أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، كم حاول أن يثني أباه عن عبادة الأصنام حتى أتى أمر الله له بألا يستغفر لأبيه!

فتنة الأبناء للآباء كم وردت في القرآن الكريم ضمن سياقات مختلفة، وتعرفون قصة الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام حين قتل الغلام الصغير، الذي كان فتنة لأبويه المؤمنين: «فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا» الآباء يفتتنون بحب أبنائهم، وربما كان هذا الحب وبالا ومصائب على الطرفين، فالأبناء زينة الحياة الدنيا، ولكن كثيرا من الآباء لا يحسنون التعامل مع هذه الزينة، فيفسدونها ويفسدون بهجتها وفرحتها.

الذي أريد أن أقوله: إن هذه العلاقة الدموية يشوبها أحيانا الكثير من الأحزان والعقبات، فالأب عندما يرى ابنه مولودا وعمره ساعات ينام نوما عميقا بين راحتيه، يبدأ هذا الأب برسم ملامح الحياة لهذا الرضيع، يريده أن يكون كأبيه تماما، أو أن يكون هو، وإن لم يكن كما هو، فكما يريد له أن يكون، وتظل هذه الأفكار والتخطيطات أشبه ما تكون بالواقع أمام الأب في حين يشب الطفل عن الطوق، ويريد أن يشق طريقه كما تمليه عليه نفسه ورغباته، وهنا تصطدم رابطة الدم مع ذاتها، فتتعارض مع أهواء النفس عند الطرفين.

ثمة مقالة جميلة بعنوان «خاطرة» للكاتب الأردني المرحوم عبدالحليم عباس، يقول فيها إنه استطاع أن يوفر لأبنائه البيت والمال، ويورثهم أسباب الحياة، ولكن شيئا واحدا استعصى عليه فلم يستطع أن يوصله إليهم ويوصلهم إليه، ألا وهو «التجارب» فالتجارب والأخطاء التي وقع فيها الأب، يريد أن يجنب أبناءه الوقوع فيها دون أن يتكبدوا خسائرها ويدفعوا ثمن الأخطاء، ولكن هيهات هيهات.

يحاول الآباء أن يوفروا على أبنائهم ضريبة التجارب والمغامرات، ولكن كثيرا ما تتعارض فورة الشباب مع حكمة الشيوخ.

ولكن لماذا يكون اهتمام الآباء بأبنائهم أكثر من سواهم، حتى أكثر من أنفسهم...؟

أيها السادة والأوانس... يرى الأب دائما أن ابنه هو امتداد له، شريان من شرايينه، فلا بد أن يكمل هذا الابن مسيرة والده إن كان ناجحا في الحياة، ولا بد أن يعوض ما فقده الأب من نجاحات ضاعت من بين يديه. وإذا أضفنا إلى هذا قرب الاثنين الأب والابن من بعضهما، منذ ولادة الطفل حتى شبابه، فإن هذه العلاقة وهذا القرب يفرض على الاثنين مشاعر متبادلة من الحب والعطف والرحمة وحتى الحزن، أنا أتكلم عن الأمور حين تسير وفق طبيعتها وفطرتها، عقوق الوالدين هذا استثناء ناجم عن خلل ما، حتى في عقوق الوالدين فإن أسباب التراحم والحزن لا تنعدم خاصة من جانب الآباء، قال تعالى: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾.

وكما قال الشاعر:

دعوتُك يا بنيَ فلم تجبني فرُدتْ دعوتي يأسا عليا

كثير من الطلاب والطالبات يأتون إلى مكتبي يحاولون بث شكواهم من آبائهم الذين يتدخلون حتى في تخصصاتهم الجامعية، بل حتى في اختيار الزوجة أو الزوج، حقيقة أنا لا أحب أن أتدخل في مثل هذه الأمور، ولكن الذي أريد أن أقوله... إن خوف الآباء على أبنائهم وحبهم لهم، ومهما بلغت درجة الحب هذه، فإنها ليست من المبالغة، لأنه ولده... هذا الحب يولد الخوف والقلق، وأحيانا الشعور بالألم، إذا جرح الابن ينزف الأب ألما وحسرة وندما لأنه ليس هو المجروح بدل ابنه! أذكر قصة للأديب المصري محمود تيمور اسمها «حزن أب» في هذه القصة يعيش شيخ في إحدى القرى المصرية مع ولده الوحيد، كان يحبه حباً كبيراً ويرى أنه سيعوضه عن كل ما فقده في هذه الحياة، كان ابنه ساعده الأيمن في عمله، كان الشيخ عساف، الآن تذكرت اسمه، يعمل نساجاً على نول بسيط.

وكان الراوي يتردد لزيارته بين الحين والحين، يوماً من الأيام يفاجأ الشيخ عساف بخبر صاعق، ولده الوحيد يموت تحت عجلات القطار، فتسود الدنيا بوجهه وتضيق عليه الأرض بما رحبت، لم يعد له في هذه الحياة أي أمل يعيش من أجله، كان الراوي يحاول التخفيف عنه دون جدوى.

ذات يوم يسأل الشيخ عساف الراوي سؤالا: بماذا يشعر الشخص الذي يموت تحت عجلات القطار؟ فارتبك الراوي وحاول أن يتهرب من الإجابة، وقال له: إنه لا يشعر بألم لأن موته يكون سريعا.

وذات يوم أيضا، يطلب الشيخ عساف من الراوي أن يرى الدنيا، أن يخرج من هذا الهم والغم، فقد سئم الحزن والبكاء والوحدة، سر الراوي كثيراً لما سمعه

من الشيخ عساف، ومن هذه الفورة الشبابية التي عادت إلى دمه وعروقه، فقال له: غداً أصحبك إلى المدينة. وفي اليوم التالي وعندما وصلا بالعربة محطة القطار وقفا قليلا في المحطة، وأخذا ينتظران القطار وما هي إلا دقائق حتى جاء القطار، هجم عليه الشيخ عساف هجوم المنتقمين، وما هي إلا ثوان قليلة حتى كان الشيخ عساف لحما مفروما تحت عجلات القطار!

لماذا فعل الشيخ عساف هذا؟ عدم وجود أبناء يعوضونه عن ولده؟ أم ليلحق بولده؟ أم ليجرب الألم الذي جربه ولده من قبله؟ كل هذا وغيره ممكن، ولكن من وجهة نظري، إن الشيخ عساف لا يريد أن يكون أنانيا، لايريد أن يترك ولده وحيدا يتألم وهو يحيا في هذه الدنيا يأكل ويشرب، خشي أن يعتب عليه ولده، أو يظن بأن أباه قد نسيه وتركه وحده تحت عجلات القطار.

مثل هذه القصة حتى لو وقعت حقيقة يمكن تصديقها عن الآباء الذين يحبون أبناءهم كل هذا الحب، لقد منحه نفسه قبل مماته وبعد مماته، فالشيخ عساف قبل أن يموت ولده، كان كثير التحدث عنه كثير التعداد لفضائله، ومن علامات الحب أن المحب يحب الحديث عن محبوبه في كل وقت كما يقول ابن حزم في طوق الحمامة، وكما يقول الشاعر:

أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًا لذكركِ فليَلُمْني اللوَّمُ

- أليس كذلك يا أحمد...؟

- نعم... صحيح دكتور...

وواصل الدكتور خالد حديثه:

لقد أبدع أنطون تشيخوف في تصوير عظمة هذا الحب عند رجل أراد الحديث عن ابنه بعد وفاة هذا الابن؛ ففي قصة «وحشة» أيونا رجل حوذي

فقير، له ولد يحبه كثيرا، يمرض هذا الطفل ويموت، فيستوحش من هذه الدنيا، كلما ركب معه أناس لينقلهم في عربته، حاول أن يحدثهم عن ولده، فلا يجد أذنا صاغية عند أحد، حتى إن بعضهم صفعه وضربه، ومنهم من وبخه وشتمه، طوال النهار لم يجد أحداً يسمع كلامه عن ولده، فاستوحش من الناس، وعندما عاد إلى بيته وأدخل فرسه إلى الحظيرة، قدم لها الطعام... فبدأت تمضغ وتأكل، وهو يقول لها: كان يجب أن يسوقك ابني لا أنا، كان حوذيا ماهرا... لنفرض أن لك مهرة، وهذه المهرة ماتت...

ظلت تأكل من يد صاحبها أيونا، وهو يحدثها عن ولده ما طاب له من الحديث، فوجد أخيراً من يستمع لحديثه عن ولده الفقيد! ولكن هل من الممكن أن يحدث العكس، أن ينتحر ولد من أجل أبيه؟ أو أن يحدث ولد فرسه عن أبيه بهذه الصورة التي تحدث فيها أيونا؟ الإجابة في المثل الشعبي القائل: قلبي على ولدي، وقلب ولدي على حجر.

ولكن في سياق الحديث عن حب الآباء للأبناء يقول مثلنا الشعبي: ما أعز من الولد إلا ولد الولد... سمّوها فطرة، سموها غريزة، ففي النهاية هذا هو الواقع الذي لم أجد تفسيرا له حتى الآن، لماذا لا يحب الولد أباه كما يحبه أبوه، وقريب من هذا الحديث الذي سمعته عن أحد الوعاظ، ولم أجد هذا الحديث في مصادر موثوقة، أنه رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول له: يا رسول الله، إن لي أما عجوزا، أحملها على كتفي، أطوف بها في البيت، أغسلها وأوضئها وأهيئها للصلاة، وألبي كل ما تطلبه، أقدم لها كل شيء قدمته لي وأنا صغير، فهل أعطيتها حقها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا، ولا بطلقة من طلقاتها...

فقال الرجل: يا رسول الله...! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد كانت تنتظر لتراك شابا، وأنت الآن تنتظر موتها!

هؤلاء هم الآباء والأمهات، جامعتكم الأولى، الذي شاهد منكم الفلم المصري «عندما يبكي الرجال» أسرة تعيش بأمن وسلام، تموت الأم، يتزوج الأب من امرأة ثانية، امرأة شريرة تقطع الأب عن أبنائه، تتشرد البنت، ويفتقر حال الأب، والابن الأكبر يحاول أن يلملم شمل الأسرة، ولكن كيف؟ لقد تعرف على جثة أخته في المستشفى بعد أن دهستها سيارة، ظلت الأمور تعصف بالأب من جهة والابن من جهة أخرى إلى أن يلتقيا في نهاية الفيلم في أحد الشوارع، فيتعانقان ويتكلمان بحرقة، يبكيان بكاء مرا ، يجلسان على الأرض ويظلان يبكيان وينتهي الفلم، فالمقصود من هذا أن الرجال الذين تستعصي الدموع في عيونهم، يجدونها تنزف دما على أبنائهم، حزن يعقوب على ولديه، وحسرة آدم على ولديه أيضا، بل وربما وجدوا اللذة في البكاء على أبنائهم الذين هم فلذات أكبادهم، مع أن هناك من يعيب البكاء على الرجال، إلا أنه قد يكون محمودا حين يكون بكاء على فلذات الأكباد.

عدا عن ذلك، إذا كانت العلاقة بين الأب وابنه مشوبة بالقلق والخوف والرد والرفض والتحدي أحياناً، فإنها ستكون أقل من هذا في علاقة الأب بابنته إلا الخوف والحزن، وأنا أتكلم عن الأوضاع الفطرية السليمة الطبيعية، بعيداً عن ظلال القوانين الوضعية ومسميات تحرير المرأة المغلوطة والجندرية وما شابه ذلك، إنني أتكلم عن البساطة والطبيعة والفطرة في هذه العلاقة الحميمة الدافئة، كم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبكي عندما كان يتذكر ابنته وهي تنفض عن لحيته التراب الذي كان يحفره ليدفنها فيه،

وهناك من نفى هذه الرواية وكذبها، المهم... لقد مثل شعراؤنا علاقة الأب بابنته وصوروها تصويراً حزيناً يخاف المستقبل والموت، فعندما يذهبون إلى الحروب وعندما يمرضون وعندما يموتون يخاطبون بناتهم، حزنا وخوفا، بل ربما شعروا بحزنهن عليهم أكثر من حزن الأبناء والزوجات، ربما كان ذلك كذلك، مالك ابن الريب مثلا يتذكر ابنته، فيقول:

تقول ابنتي لما رأت طولَ رحلتي سَفارُك هذا تاركي لا أَبا لِيا

تكون البنت أكثر عطفا وحنانا من غيرها على أبيها عندما يصاب بمكروه، يبدو أن شعورها بأشباح الفقر والخوف، وغياب الصدر الذي كان يحنو عليها منذ الصغر، يبدو أن كل هذا وذاك يجعلها الأقرب من قلب أبيها، والأكثر حزنا وشعورا باللاأمن واللااطمئنان. وكثيرا ما تسمعون من أمهاتكم أو جداتكم: البنت أحسن من مئة ولد. البنت تبحث عن الأمن والأمان، وتساعد أهلها وأباها في تحقيق ذلك من خلال التزامها وطاعتها، وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بالبنات خيرا، «استوصوا بالنساء خيرا»، وقوله: «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات» وقوله: «رفقا بالقوارير».

أرجوكم... لا أحد يرفع يده، أعرف ماستقولون، خاصة الشباب، ستقولون إن البنات اليوم خرجن عن الطاعة ولم يعدن كسابق العهد، وستحاول الفتيات الآن أن يقمن بالرد وتختلط الأمور بينكم وبينهن. أنا لا أناقش موضوعا مجتمعيا، لست مسؤولا عن مشكلاتكم مع البنات أو مشكلات البنات مع الشباب، ستسألون عن اللباس والتقليعات التي يخرجن بها هذه الأيام، وستسألون عن القوانين الحديثة وقوانين حماية المرأة والأسرة التي تخالف الإسلام، وما نستورده من تعاليم غربية، من حقكم أن تسألوا مثل هذه الأسئلة، ولكنني لو فتحت لكم المجال لما انتهت مثل هذه الأسئلة عن هذا الموضوع، خاصة أنه

ليس موضوعنا، فأنا لست مصلحا مجتمعيا لتوجهوا لي، أو بمعنى أكثر دقة لتهاجموني بأسئلتكم، وتجعلوني مسؤولا عن كل صغيرة وكبيرة، وتضيقون عليَّ الخناق، أعلم ذلك تماما؛ فالطالب لا تعجزه الحيلة، يحاول إيقاع أستاذه في أي إحراج... على أية حال، مانسيت أن أقوله في البداية: إن ماورد ذكره من علاقات أبوية في القرآن الكريم كثير منه كان يتخلله الحوار، ولو تتبعتم ذلك في قصص الأنبياء وغير ذلك لوجدتموه جليا، وأتمنى أن يخرج من بينكم أو من بينكن من يدرس أو من تدرس هذا الموضوع ولو ببحث قصير. فأنا في رسائل الماجستير والدكتوراه أحاول أن أوجه طلابي ليكتبوا في أعمال أدبية تبرز فيها مشكلات ذوي القربى، وقبل فترة وجيزة نوقشت رسالة ماجستير أشرفت عليها بعنوان: «تمثيلات الأب في الرواية النسوية العربية المعاصرة» لزميلة لكم اسمها ليندا. وكذلكم رسالة ماجستير بعنوان: «الأب في الرواية العربية المعاصرة» لزميل لكم اسمه عدنان.

أختم حديثي بقصة حدثت معي أنا شخصيا، أو بمعنى أدق كنت شاهدا عندها... أتاني صديق ذات يوم وكان على خلاف شديد مع زوجته التي غادرت البيت وأخذت الطفلتين، ورفعت قضية على زوجها. فاصطحبتُه إلى صديق لي يعمل محاميا، وكانت تظهر على هذا الزوج علامات القلق والخوف. طلب المحامي منه الهوية. فراح يستخرجها من حقيبته، فوقعت يده على قصاصات ورقية، فقال للمحامي: انظر هذه الرسائل التي بعثتها ابنتي الكبرى، وانظر الرسومات من الصغرى... المحامي ينظر مجاملة وهو ينتظر الهوية. ثم يخرج صور ابنتيه ويقول للمحامي: انظر ما أجملهما... والمحامي يريد أن ينتهي ويرى الهوية... إنه يريد بهذا أن يقنع المحامي بأنه أب، ليوصل المحامي بدوره هذه الرسالة إلى القاضي. فإذا كان القانون في صالح المرأة؛ فإن هذه الوثائق

العاطفية والاستعطافية ستكون في صالح الأب كما يظن هذا المسكين.

أقدم لكم اعتذاري، فقد أطلت واستطردت كثيرا هذا اليوم وأعتذر لزميلتكم خلود، التي تذكرنا بـ «لحن الخلود» وأنا أذكركم بـ «النهر الخالد»، لقد هُضم حقها هذا اليوم، وهضمنا حق مؤنس الرزاز، إجمالا... فإن روايته ليست مطلوبة في الامتحان، يمكنكم أن تقرأوا له بعد نهاية الفصل واقرأوا اعترافاته الجميلة في مجلة «أفكار» وأكرر اعتذاري لخلود... هذه هي الرواية، هذه طبيعتها يمكن أن تنقلنا من شيء إلى كل شيء، تستوعب الحياة كلها، الرواية هي الحياة، والحياة هي الرواية، كل شيء في الحياة موجود في الرواية، الظلم، الموت، الفرح، الحزن، الحياة نفسها موجودة في رواية الحياة! لا يوجد شيء غير موجود، كل شيء موجود حتى الخيال موجود لأنه موجود، الذين يدرسون منكم الآن مادة «النقد الحديث» وقرأوا موضوع «الواقعية السحرية» لاحظوا الاسم: الواقعية: واقع، والسحرية: سحر، وما دام السحر موجودا فهو واقع، ومادام الخيال موجودا فهو واقع أيضا، ماعليكم إلا أن تحاولوا ربط الرواية بالحياة، والحياة بالرواية... كنت سعيدا بلقائكم في هذا الفصل، أرجو أن تدرسوا جيدا، ولا تنسوا قراءة المقالات المتعلقة بـ «عمارة يعقوبيان»، بعضها موجود على الشبكة العالمية. أغلقوا الباب وأرسلوا المفتاح إلى السكرتيرة.

(٢٦)

أما المحاضرة الأخيرة خاصة الدكتور جواد، فقد استعدت لها رمز استعداد الأميرات للتتويج على منصة ملكات الجمال، فالكحل لا يكاد يلمس العينين من قلته، يتناسب مع كمية الآي لاينر، حددت رموشها بمسكارة مطلية بالذهب، كان لون الشدو كأنه مصبوغ من عينيها، وقد حددت حاجبيها، فصارا خطين من

الرسم المرسوم بريشة الموناليزا. خداها يكفي نضوجهما، هكذا دونما أي عبث، فاكتفت بقليل من الفاونديشن، وأكثرت كثيرا من الروج على شفتيها فصارتا كفلقتي خوخ ناضجتين. وضعت القرطين فكانت طويلة مهوى القرط، أزرقان كأنهما من أحجار السماء... بلوزها الأحمر القاني يضغط على جذعها، نصف دائرة البلوز تظهر أكثر من نصف نهديها، منطقة مابين النهدين كانت طويلة وعميقة، حركتها الأخيرة كانت صاخبة عنيفة، فقد جاءت بشال لونه موف لامع، حريري من الساتان الخالص، وضعت الشال على كتفها وأخذت طرفه الأمامي، وضعته على نهدها الأيمن ثم مررته من تحت نهدها الأيسر وهي تمسك الطرف الآخر، بيدها اليمنى من الخلف، التقى الطرفان خلف كتفها الأيمن، فشبكتهما بمشبك معدني أعد خصيصا لهذه المهمة الصاخبة. ثم علقت على صدرها طوق الذهب الذي أهداها إياه أحمد يوم خطوبتها، كان على صدرها أجمل وأبهى من ميداليا الأولمب!

في هذه الأثناء كان الدكتور جواد يقرأ القرآن الكريم، وينتظر ارتفاع الشمس ليصلي ركعتي الضحى، كان المرض قد تمكن منه، ازدادت عيناه غورا، وازداد جلده تيبسا، كان يدرك أن أكثر الأدوية والحقن ما هي إلا مسكنات ومهدئات، كان يعزي نفسه بالاستغفار والدعاء، كان يكثر من دعاء ذي النون: «لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» لقد دهش حين قرأ عنه أن أوله تهليل، وأوسطه تسبيح، وآخره اعتراف بالذنب.

منذ الصباح بعث ابنته سعاد في مهمة. قررت رمز الذهاب إلى مكتبه أولا، تجنبا لانتباه الطلاب واختصارا للمسافات كسبا للوقت وحرقا للمراحل، أسرعت وحثت الخطى قبل أني يسبقها أحد ما، أو واحدة ما، لم تجد أحدا

ما، أو واحدة ما، كل ما وجدته ورقة معلقة تفيد بأن الدكتور جواد يعتذر عن عدم إعطاء المحاضرات لهذا اليوم، بادئا كلامه بالبسملة، وأبنائي وبناتي الطلبة...

اليوم صرنا بناتك يا جواد؟ سأصطادك يوم الامتحان، لن أقص أظافري حتى ذلك اليوم.

شعرت بالفشل والاستياء، لقد كان وجوده اليوم أمرا يحسم أمورا كثيرة، التخرج، الزواج، الوظيفة، الانطلاق، الثروة... بحثت عنه هنا وهناك وكم تمنت لو تجده في الغرف الأخرى... لكنها تعنكبت على نفسها ووحدتها قائلة:

- كم كنت غبية؛ لو حسمت الأمر منذ بداية الفصل لكنت قريرة العين مطمئنة البال، ما الذي سيفعله ذلك الحقير، ولكن الفرصة ما تزال قائمة، أيام قليلة وأحسم أمره وأمري والأمور كلها.

لم تكن ترى أحدا على الإطلاق، شعرت أنها داخل خيمة سوداء، في حين كان الجميع يراها ويرقبها ويرقب فتنتها ذكورا وإناثا.

(٢٧)

مالك يستعد للامتحانين النهائيين، «النقد الحديث» و«الرواية» أنهى البحث المطلوب في مادة الرواية «المكان في رواية أبناء القلعة» وسيسلمه يوم الامتحان، قرأ «عمارة يعقوبيان» وحاول استكشاف ما فيها من أحداث وظلم وقتل وتبئير ولاتبئير، وقد زوده فارس بمقالة عنها حصل عليها من الشبكة العالمية للمعلومات.

كان همه الأول وشغله الشاغل أن يحافظ على الامتياز، أي خلل أو اضطراب سيفقده إياه ويكون من الخاسرين، لم يكن يوفر الوقت والجهد في الدراسة، في حين كان أحمد يفكر في النجاح فحسب، لم يكن لديه أي مرجع، أو رواية أو مقالة، اشترى رواية «عمارة» يعقوبيان» قرأ نصفها وظل يؤجل النصف الآخر، أما رمز فكانت تشمئز من كتب الصوتيات، كلما فتحت كتابا وجدت فيه ما يجعلها تشعر بالدوار، المصطلحات والنظريات المتداخلة والرسومات والمخططات التشجيرية ومنهج التحليل التاغميمي، شعرت بالندم لأنها لم تتخلص من هذه المادة في السنوات السابقة، فكانت تؤجلها دائما لعدم رغبتها فيها، والآن وضعت نفسها في بؤرة الرهان على الغمز واللمز مع الدكتور جواد!

الجميع بانتظار الامتحان، العيون شاخصة، والوجوه مربدة مكفهرة، الدكتور جواد أمره سهل، أما الدكتور خالد فلا يستهان به، الدكتور نايف مدرس مادة النقد ليس سهلا هو الآخر، وإن كان أقل حدة من الدكتور خالد.

عندما يتفاءل مالك يرى أن صنع السفينة على وشك أن يكتمل، وتستجمع قطعها بانتظام وأمان، وعندما يتشاءم يرى نفسه ممسكا بقطعة من السفينة المتهالكة المحطمة، يمسك بها ويعوم وحده في تيار الفقدان والضياع!

قرر أحمد الذهاب إلى مكتب الدكتور خالد ليستعطفه، ليشرح له شيئا عن والده الذي ستثور براكينه أن لم ينجح ولده في هذه المادة ويتابع مخطط الرسالة.

في الطريق إليه، كان أحمد يضع أباه في طريق، والدكتور خالد في طريق مقابل، وكلاهما صعبان مريران، فبأي وجه وبأي كلمة سيبدأ الكلام معه، ماهي الأعذار التي سيختلقها له؟ ظلت الأسئلة تترنح به والطريق تعتصره وتضيق

أمامه، الهواء أصبح قليلا في محيط سيره، ظل يمشي والطريق يضيق يضيق إلى أن وصل مكتب الدكتور خالد، وكم فرح واستراح، وتهلل وجهه حين وجد المكتب مغلقا والدكتور ليس موجودا. لقد نجا بأعجوبة من كلام ربما كان أقله: كم مرة أيقظتك من نومك يا أحمد؟

رمز على شفا حفرة، تذكرت ما قاله الدكتور جواد يوما:

- أحد الزعماء العرب في إحدى خطاباته الثورية النارية قال: لقد كنا على شفا حفرة، ولكننا بحمد الله استطعنا أن نتقدم خطوة للأمام...!

لا ياجواد، لا أريد منك أن تدفعني خطوة للأمام، أريد منك أن تجتاز بي إلى بر الأمان وضفة النجاح، إن لم أكن أمتلك القدرة الكافية والعقل الراجح والرغبة في دراسة مادتك القذرة مثلك، فإن لي جسرا سيجعلك صريعا مجندلا تحت قدمي، وبعد النجاح سيكون لكل حادث حديث.

الدكتور خالد وضع الأسئلة وصورها وانتهى الأمر تماما. أما الدكتور جواد فكانت أسئلته سهلة للغاية، كي يسهل على الطلاب ولا يتعرض لأي احتجاج يمكن أن يفسد عليه خلوته مع روحانياته، ولكي يسهل التصحيح وجمع العلامات على ابنته سعاد أيضا.

كان كلما رأى سعاد تذكر أمه سعاد، تذكرها وهي تصلي، وتتمتم بآيات القرآن، لقد كانت كثيرة الأخطاء في القراءة، كان يضحك من أخطائها ولا يحاول أي محاولة لتصحيح خطأ واحد من أخطائها...! نادى سعاد وطلب منها أن تقرأ على مسمعه سورة الملك، كانت تقرأ وهو يبكي، فصارت تبكي معه!

رمز تعد العدة لليوم الموعود مع الدكتور جواد، وكان مالك مستعدا للمعركة مع الدكتور خالد، أما أحمد فكان يترنح في منزلة بين المنزلتين من رمز ومالك.

«عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»

شعور رمز بالفشل في المحاولة الأولى جعلها فاترة الحماسة تجاه الملابس والفتنة، ذهبت إلى الامتحان بفتنة أقل من فتنتها في المرة الأولى، ولكنها قررت أن تغازل أستاذها بأسلوبها الخاص، لم تجده في مكتبه فانتظرته فلم يحضر، دخلت قاعة الامتحان واتخذت في القاعة مكانا شرقيا بعيدا عن انتباه الطلاب، أخذ الطلاب مواقعهم، فوجئت رمز، بل صعقت عندما حضرت الفتاة المراقبة على الامتحان، ولم يحضر الدكتور جواد، طلبت رمز بعد أن استلمت ورقة الامتحان من المراقبة أن تغير مكانها، فرفضت المراقبة بأدب جم وبابتسامة لطيفة، كانت حازمة مع الجميع.

رمز لم تدرس جيدا، شعرت أن الامتحان سهل، فساعتان من الدراسة الجادة كانتا ستضمنان لها النجاح، ما الذي جرى مع الدكتور جواد، كان قلبها يخفق قلقا، قالت في نفسها: ربما سافر في مؤتمر، وتغيب المحاضرة الأخيرة وكتب الأسئلة على عجل... ولكن لا بأس الفرصة ماتزال قائمة... عندما يعود من سفره ستكون المفاجأة بانتظاره... راحت تقرأ الأسئلة وتحاول الإجابة، كانت تحاول بكل ما أوتيت من ذاكرة وحزم وعزم... وبعد الامتحان سألت المراقبة عن الدكتور جواد، فقالت إنه منشغل جدا، فطلبت منها رقم هاتفه فاعتذرت بأدب وانصرفت.

كان تعريف «التبئير» بأنواعه: الداخلي والخارجي واللاتبئير أحد أسئلة الدكتور خالد، وكانت الراء مكتوبة بوضوح تام دونما غموض أو تشديد، كان امتحانه صعبا على الجميع، بينما كان الربان يأخذ موقع القيادة في الطاولة المستديرة، ويصحح أوراق الشعب الأخرى. كانت عيون الطلاب ترقب أسلوبه

في التصحيح والتخطيء، ولكن هيهات أن يفهمه أحد!

أحمد كان بينَ بين...!

(٢٨)

كان مالك متفائلا بعض الشيء، خاصة أنه تلقى هاتفا من فارس في الصباح يخبره بعلامته في مادة «النقد الحديث» العلامة كانت امتيازا فحافظت له على الامتياز فترة من الوقت، فبقي على شفا حفرة، إما أن يدفعه الدكتور خالد خطوة للأمام فيقع في الهاوية، وإما أن يبقى في مكانه في بر الأمان! فارس يبحث عن النجاة في النجاح فحسب، وأحمد حائر...

القلق الذي ساور الجميع بعد الامتحان كان أشد وأنكى من ذلك الذي كان قبله! فالكل يحسب للعلامة ألف حساب، لكل طالب وطالبة معايير وحسابات وطموحات ومآرب خاصة.

اتبعت سعاد تعليمات أبيها بدقة، كان ثمة رسائل شكر من الطلاب على سهولة الامتحان، مبعوثة ومبثوثة على ورق الإجابة هنا وهناك، لاحظت سعاد ارتفاع العلامات بشكل لم يكن معهودا في فصول سابقة، كان ذلك ينطبق على جميع شعب هذا الفصل بما فيها شعبة الصوتيات.

آمال رمز بدأت بالانهيار، كلما مرت الساعات والدكتور جواد لم يتصل بها، شعرت بالانهيار وبدت الأحلام مشتتة والأموال مبعثرة في الهواء لا تستطيع الإمساك بها!

أمسكت سعاد الأوراق، أوراق شعبة الصوتيات، كانت حريصة على إنهاء عمل أبيها، وكان هو حريصا على تسليم العلامات للجامعة في الوقت المحدد.

أخذت تصحح وتجمع وتوثق، بينما كانت رمز تتلوى كالأفعى تحت صهيد شمس الصحراء، آمالها وآلامها وأموالها كلها الآن بين يدي سعاد وهي لا تدري، تسأل في نفسها بحزن وانكسار: لماذا لم يتصل الدكتور جواد حتى الآن! ألم يصل إلى ورقتي بعد! ما زال في الأمر مهلة يوم أو يومين...

سعاد أنجزت عددا من أوراق الصوتيات، بينما فحت رمز فحيح الأفعى عندما سمعت رنين هاتفها النقال، هجمت هجوم الفهود على فرائسها، ومن غير أن تنظر إلى رقم المتصل قالت بصوت ناعم رقيق خافت جميل:

- آلو...

- مرحبا يا رمز...

لقد كان أحمد...!

لم تتعب سعاد من التصحيح، أو هكذا أرادت أن تشعر والدها، كانت تبدي سرورها أمامه بهذا العمل المسلي، أوراق الصوتيات شارفت على الانتهاء، الدكتور جواد يشعر بأنه أثقل على ابنته كثيرا هذا الفصل، وكانت ملامح العرفان والشكر تبدو على وجهه المريض النحيل، بينما كانت رمز تتقافز من جهة إلى أخرى في بيتها، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، كادت أن تخرج من شدة تماهيها في الأمر من ورقة الامتحان، كادت أن تخرج لسعاد من بين الأوراق والسطور...!

ولكن سعاد ظلت تتابع التصحيح حتى وصلت ورقة رمز، في حين كان مالك يتخيل الصنم والتمثال الذي تحجر أمامه... الدكتور خالد! ماالذي سيفعله، هل صحح الأوراق؟ هل أدرك مقدار التعب الذي تعبته في البحث؟ الدكتور خالد... كيف يصحح الآن، ما المعايير التي يعتمدها؟ هل هي معايير واقعية من الحياة، أم معايير روائية؟ هل يركز على الراء ويشدد عليها عندما سيصحح

سؤال التبئير؟ هل وهل... وألف هل بعد هل... هل يستطيع الكاتب الحقيقي حتى الكاتب الضمني أو الوهمي أو الوجودي هل يستطيع واحد من هؤلاء أو كلهم مجتمعون أن يصفوه أو يصفوا طريقته في التصحيح؟ من يقتحم عليه وحدته، من يعرف أين هو الآن؟

أمسكت سعاد ورقة رمز، إجابتان خاطئتان وثلاث صحيحة واثنتان فارغتان، قلبت الصفحة، سؤال التحليل التاغميمي الذي يحتاج صفحة كاملة لعملية تشجيره محلول نصفه، في الصفحة الثالثة مكتوب:

«أين أنت دكتور جواد، هكذا نسيت رمز التي كانت تداعبك وهي تتمنع عليك (شكل قلب الحب)، كم أنا مشتاقة للجلوس في مكتبك، أنا بنفسي، وسأشغل الكمبيوتر، وسنشاهد معا فلم «حرارة الجسد» ألا تريد أن نركب قارب الحب ونهرب إلى الشاطئ الآخر (شكل قارب عليه عبارة «سفينة العشاق»). أنا بانتظارك يا مسهرني ياأحلى جوجو... المدللة رموز... هاتف(...).

الدكتور خالد مختف تماما لا يستطيع أحد من الإنس والجن معرفة مكانه! أحمد حائر يشغله الحب أكثر من شغل العلامة، مالك قلق جدا ولكنه يشعر بعظمة التحدي لأنه في رهان ضمني مع الدكتور خالد، الدكتور جواد منقطع للعبادة...

الأسى يغلف وجه سعاد مما قرأته على ورقة الطالبة رمز، ولكنها تماسكت، وحبست نفسها في غرفتها بعدما لم تستطع حبس دموعها وأخذت تبكي، لكنها لم تشعر أحدا بها، عادت وأكملت ورقة رمز، مجموع الامتحان الأول والامتحان الثاني مع علامة المشاركة التي أمر الدكتور جواد بالتساهل فيها مع مجموع الامتحان النهائي مع العلامات الخمس لكل طالب، جعلت من مجموع رمز

٤٥٪ دون أي اعتبار لما كان مكتوبا ومرسوما على الصفحة الثالثة من ورقة الامتحان...!

رسبت رمز ومالك حصل على مجموع أقل من الامتياز بنصف علامة!

(٢٩)

الهواء الأسود مرّ وحامض، الشمس ذاتية الظلام والحياة سراب... هكذا هي الدنيا الآن، يراها مالك بوضوح شديد، وبصر حديد! الدكتور خالد يحلق عاليا بينما هو دون أي قوارب للنجاة، السفينة يزداد تفككها، وطائرة الدكتور خالد تزداد متانة وإمعانا في فضاءات الفضاء. هاتف فارس سيظل رنينه محفورا إلى الأبد في ذاكرة مالك، لأنه معتق بالظلم البواح...

- مجموعك العام على الإنترنت أقل من الامتياز بنصف علامة...

- وأنت ؟

- الحمد لله... ناجح والسلام.

- وباقي الطلاب؟

- والله شيء عجيب، هناء أعلى منك، ونضال وأحمد و...

- من أحمد...؟ أحمد النائم...؟

- نعم، أحمد النائم...!

- يا رجل ما الذي يحدث...!

- تصور أن ترتيبك هو الثامن في الشعبة يا مالك

- كيف يا فارس...؟

- والله لا أدري... أنا من رأيي ألا تسكت على هذا الظلم... اكتب شكوى.. الدكتور خالد لا يحترم أحدا... لا تحترمه يا أخي... هذا إنسان ظالم... ثم

إن هذا حقك القانوني والشرعي والإنساني... اكتب شكوى يا أخي... اكتب شكوى...

عندما استفاق مالك من هذه الصاعقة نظر إلى الجدار المقابل له تماما، كان دائما يتخيل عليه صورة الدكتور خالد وهو يقدم محاضراته، كان يقرأ الرواية ويرسم صورة الدكتور خالد في مخيلته على الجدار المقابل وهو يقدم الرواية ويحللها، تذكر شيئا غريبا له علاقة بهذا الخراب وهذا الدمار وهذا الظلم...

لقد تذكر أفلاطون في جمهوريته حين ضرب مثالا رائعا للحقيقة والخيال، أناس مقيدون منذ نعومة أظفارهم في كهف عميق، مقيدون بحيث لا يستطيعون مجرد الالتفات إلى الخلف، وكان وراءهم أناس يشعلون النار من الخلف فيرى هؤلاء المقيدون ظلال النار وظلال الناس وظلال الأواني، لا يرون إلا الظلال فقط، ليعيشوا معها وتسكن في جوارحهم، ولكنهم بعد أن يمتد بهم العمر يأتي من يفك قيودهم فيرون كل شيء على حقيقته، ولكنهم لا يقتنعون بأن ما يرونه الآن هو الحقيقة، الحقيقة بالنسبة إليهم هي الظلال، وما عداها هو الوهم والخيال.

عندما كان مالك يتذكر صورة الدكتور خالد على الجدار كان يراه حقيقة يرسمه ويرسم صوته ويسمعه، وكان يحاوره بصوت عال في بعض الأحيان، ولكنه فوجئ في النهاية أنه خيال... وهم على وهم، الدكتور خالد كان يناقض نفسه في حديثه عن الظلم، كثيرا ما كان يردد: «الظلم مؤذن بخراب العمران» أليس هذا ظلما، أن يأخذ النائم علامة اليقظ المستيقظ ؟! نهض وأحضر كتاب «جمهورية أفلاطون» راح يفتش عن شيء قرأه سابقا، وظل يفتش ويفتش حتى وجده يقول: «فتصور في عقلك أسطولا أو سفينة واحدة، تجري الحوادث فيها

على النحو الآتي بيانه: يفوق رئيسها جميع البحارة طولا وقوة، ولكنه أصم حاسر النظر، لذلك كان عاجزا في فن...»

تذكر أيضا القصة العالمية التي رآها صغيرا على التلفاز، «جزيرة الكنز»: خمسة عشر رجلا ماتوا من أجل صندوق... مغامراتهم على السفينة كانت أشبه بالخيال، ولكنه الظلم أيضا والطمع الذي قتل بعضهم وأغرقهم، في حين حلق الآخرون عاليا!

شعر بالاختناق بالحقد والضغينة، الشعور بالظلم شعور مرير، اتصل بالدكتورة أمل:

- أهلا يا مالك

- دكتورة، إذا سمحت لي أن أعيد إحدى المواد لديك لأحصل على علامة مرتفعة...

- لماذا؟

- الدكتور خالد حرمني من الامتياز الله لا يوفقه...

عندما سمعت كلمته الأخيرة عن الدكتور خالد تغيرت نبرة صوتها وقالت:

- الفصل القادم لن أدرس مواد الماجستير... وأنا الآن منشغلة جدا، مع السلامة...

حتى أنت يا أمل... كان يريد أن يبوح بشيء من القهر والغيظ، ولكنها زادته قهرا وغيظا...!كلما مر يوم ازداد غضبه وحقده، كيف يمكنه مواجهة الدكتور خالد؟ إذا قال له بأنه منصف ودقيق في وضع العلامة؛ فإنه سيغضب، فكيف إذا قال له بأنك قد ظلمت!

ظل على حاله، وحاله تسوء يوما بعد يوم، شاهد في إحدى الفضائيات في

عرض برامجها الأسبوعية فلم «عندما يبكي الرجال» سجل موعده في ذاكرته المنخورة. مرت الأيام بطيئة مريرة، من الوظيفة إلى البيت إلى الوظيفة، مع التغيب عن وظيفته أحيانا، صارت الجامعة سحابة من دخان مبين! فكر أن يترك رسالة للدكتور خالد، ولكنه سيأخذها على محمل اللاشيء واللاجد! فكر أن يضع له في بريده ورقة مكتوب عليها:

أستاذي الفاضل:

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾

ويقول تعالى في حديثه القدسي: «ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا»

«اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

ولكنه يعرف ردة فعله ويعرف أنه لن يرتد له طرف من أجل هذا، إنه يرى نفسه خير من يقيم الطلاب وخير من يضع العلامات، فيه كل شيء من الكبرياء، ولكن المشكلة أنه ليس متكبرا وليس متعجرفا فمن يفهم هذا الإنسان؟ من يستطيع حل اللغز؟

فجأة يتصل فارس:

- لقد ذهبت إلى مكتب الدكتور خالد...

- وماذا قال لك؟

- قلت له إن الطلاب مستاؤون جدا من العلامات...

(وبدا القلق ظاهرا في كلامه، مالك أيضا بدأ قلبه يخفق ويضطرب، كان تأثيره بالغا في الطرفين).

- وماذا قال...؟

- قال: أنا أعرف كيف أضع العلامة، هذا شأني أنا...

- وماذا أيضا؟

- كاد يضربني بالماوس، يا أخي والله لا أدري... لا يمكن التفاهم معه... عنيد جدا... لايحترم أحدا... يا أخي اكتب شكوى... الدكتور خالد وأمثاله لا يحسبون حسابا لأحد، اكتب شكوى وسترى النتيجة...

كان مالك يدرك كل هذا ويعرف أن لا فائدة... سيظل وسطا بين خمسة عشر طالبا وطالبة: (الثامن) سيظل محروما من الامتياز، فلان وفلان وفلانة وصاحبتها كلهم أفضل منه، كيف تسير الحياة؟ ما الضابط الذي يضبطها؟ ما البوصلة التي تشير إليها لتسير في الاتجاهات النقيضة؟ كل شيء يخرج عن القانون والواقع والفطرة ونواميس الكون! كل شيء هو الظلم، والظلم هو كل شيء!

(٣٠)

بعد أسبوعين تقريبا اتصل فارس:

- نعم يا فارس

- يا أخي لماذا لم تحضر الجنازة اليوم؟

(خلال أقل من ثانية خيل لمالك أن الدكتور خالد مات، فقد دعا عليه ملء السماء والأرض).

- أية جنازة؟

- جنازة أحمد...

- أحمد؟!

- أحمد الذي غضبت عليه عندما أخذ علامة أكثر منك.

(بدأ قلب مالك يخفق بشدة، الهاتف يرتجف بين يده وأذنه)

- يا رجل!

- يا رجل والله العظيم، اتصلت بك صباحا وكان هاتفك مغلقا، اليوم صلينا عليه الظهر وإمام المسجد وبعض المصلين رفضوا الصلاة عليه...

- لماذا؟

- لأنه انتحر...

- انتحر؟!

- والله العظيم، لكن لا أحد يعرف الخبر بشكل دقيق، أبوه وأهله كلهم حائرون، دفنوه وسره معه!

- والفحص في المستشفى... والطب الشرعي...

- والله لا أدري، الله أعلم.

(لم يعد مالك يحتمل المزيد من مكالمات فارس، ولكن هل الخبر صحيح، من عادة فارس أن يبالغ ولكنه، لنفرض أنه كذب بالانتحار، فهل يكذب بالموت وصلاة الجنازة؟ اتصل بالدكتورة أمل):

- نعم يا مالك الخبر صحيح.

- وسبب الوفاة؟

- لا أدري، سمعتهم يقولون إنه قتل نفسه، أرجو ألا يكون ذلك صحيحا، رحمة الله عليه، ولكم من بعده طول البقاء...

غامت الحياة أكثر واكفهر وجهها ووجه مالك، قلبه قطعة من دم أسود، صار يدور بأفكاره عكس عقارب الساعة، لا يجد تفسيرا مباشرا أو مقنعا لانتحار أحمد، أحمد نجح بعلامة هو نفسه لم يحلم بها، حاول أن يجد تفسيرا، لكن

ما الفائدة، شعر في نفسه رغبة في معرفة المزيد عن الانتحار، لجأ إلى مكتبته وتناول كتاب أستاذه الدكتور خالد، الذي ما يزال يطارده في كل مكان وزمان، تناول كتابه:

الانتحار في الأدب العربي

دراسات في

جدلية العلاقة بين الأدب والسيرة

وكان مالك قد قرأ جزءا منه في بحث منشور في إحدى الدوريات.

«يتوقف هذا الكتاب عند بعدين رئيسين:

في البعد الأول يدرس الكتاب لحظة الانتحار كما تتجلى في كتابات المنتحرين، من المبدعين العرب، ويصل بين هذه اللحظة العميقة الغور، المعقدة التركيب وبين هذا الإبداع الذي يحتويها ويرهص لها.

ويتوقف في البعد الثاني عند العلاقة بين تجارب روائية متميزة ونصوص من السيرة الغائرة في أعماق الروائي بغية الكشف عن العلاقة الجدلية بين السيرة والرواية».

ما قرأه مالك في هذا الكتاب لم يقدم شيئا يساعده في فهم انتحار أحمد، الدكتور خالد لا يهمه الواقع، أحمد ليس أديبا ولا روائيا، الدكتور خالد يبحث عن أديب منتحر، عن رواية فيها انتحار، عن قصة مأزومة أو حكاية مخنوقة بالموت، ليتجلى بالتحليل والدراسة.

ترى هل سمع الدكتور خالد بانتحار أحمد، هل أدهشه الخبر كما كان يدهش لأخبار المنتحرين في الروايات؟ هل سيحاول فك طلاسم هذا الانتحار، أم أنه سيقول: لا أحب أن أتدخل في مثل هذه الأمور؟

مضت أيام ومالك منشغل التفكير في أحمد وانتحاره العجيب، حتى في عمله ظل منشغلا به، فهو لا يغيب عن باله، يحاول ويحاول دون أن يقتنع بأي تفسير تمليه عليه أفكاره، فرفض فكرة أن يعرف الأمر من خلال خطيبة أحمد. وبينما هو في وظيفته رن هاتفه، أخذ قلبه يخفق عندما كان المتصل فارس.

- أين أنت يا رجل؟

- في العاصمة، خير إن شاء الله.!

- أنا الآن في البريد، وفتحت صندوق بريدك، فيه قسيمة رسالة مسجلة، أترك القسيمة في الصندوق أم أحضرها لك إلى البيت؟

- هذه هي المرة الأولى التي تأتيني فيها بخبر سار، اتركها في الصندوق، سأمر مساء لاستلامها.

- وفاتورة الكهرباء؟

- يا أخي اتركها... اتركها... اتركها يا ابن الـ...

كان معتادا أن يستلم رسائل مسجلة فيها شيكات من مجلات خارجية ينشر فيها مقالاته أو قصائده، ربما تكون من إحدى المؤسسات الخليجية التي تقدم لها بطلبات عمل... هذه المرة شعر بالارتياح تجاه فارس، غادر وظيفته مبكرا ليلحق دوام البريد في مدينته، كان الخبر الذي أخبره به فارس كفيلا بأن ينسيه عددا من همومه، وانتحار أحمد بعض الشيء، صار يرسم أملا جديدا في السفر إلى الخليج، يرتاح على الأقل من رؤية الجامعة أو المرور قربها أو ربما لاتعود تخطر بباله كثيرا فيتناساها شيئا فشيئا... وربما ارتاح من الأخبار التي ينقلها فارس... ولكن خيبة الأمل كانت كبيرة، فالرسالة المسجلة مصدرها المدينة نفسها، قال في نفسه : أحمق يا فارس... وماذنب فارس، أنا لم أسأله عن مصدرها!

كانت من منتدى النجوم الثقافي. شعر باليأس، بدأت الأحزان تتراكم عليه من جديد وبشكل أشد وأقل هواء، وصل بيته ورمى الرسالة جانبا تناول الطعام وراح حتى وقت متأخر يقلب المحطات الفضائية منتظرا فلم «عندما يبكي الرجال».

كان يشاهد الفلم ويتذكر ماقاله الدكتور خالد، كأنه كان موجودا، كان يتخيل الدكتور خالد موجودا على الجدار، جدار النور والفلسفة، ظل ممعنا النظر في الجدار والفلم حتى بكت الرجال، كان معتادا أن يقرأ إلى وقت متأخر في مثل هذه الليلة، ولكن الدكتور خالد بغَّضَ إليه كل كتابة وقراءة، تناول مغلف منتدى النجوم، لم تكن شهادة تقدير، ولم تكن دعوة للمشاركة في ندوة أو أمسية. هل كانت صدفة أم خطأ بريديا أم حيلة ما، أم هكذا شاءت الأقدار، لم يستطع أن يترك الرسالة المطولة حتى أنهاها، جاء في الرسالة ما يأتي:

(٣١)

«أخي العزيز مالك

صاحبي البعيد مالك

أستاذي الكبير مالك

لست أدري كيف أبدأ الكلام معك، أرجو أن تعذرني أولا لأنني لا أملك القدرة على الكتابة كما تمتلكها أنت.

قبل أن أشرح لك كيف وصلت إليك هذه الرسالة عن طريق منتدى النجوم الثقافي، أود أن أعرفك نفسي أولا.

أنا أحمد...

نعم يا مالك، أنا أحمد المنتحر، وإن لم تسمع بخبر انتحاري بعد، فأنا أحمد الذي غضبت غضبا شديدا عندما سمعت أنه حصل على علامة أعلى

من علامتك عند الدكتور خالد الحاج، وأرجو أن تبلغه سلامي، وتبلغه بأنني لا أستحق هذه العلامة.

نعم يا مالك... أنا أحمد... أحمد النائم، كما تحب أن تسميني، لقد وصلني كل الكلام الذي قلته عني بعد سماعك نبأ العلامات، لا بأس، لم أغضب منك، أنت الذي يجب أن تغضب، أنت الذي تستحق الامتياز وعن جدارة.

والآن هل عرفت من أنا! هل تأكدت أنني أحمد النائم؟

والآن، كيف وصلتك هذه الرسالة عبر منتدى النجوم الثقافي؟

أنا يا مالك لست جاهلا تماما كما تظن أنت، لقد أردت أن تأخذ هذه الرسالة صفة الرسمية، حتى أبعدها عن أي شكوك، وأنا بحكم عملي مع أبي في الاستيراد والتجارة، أعرف أن الرسالة المسجلة تحتاج إلى هوية وإجراءات، لقد اتفقت مع أحد أعضاء منتدى النجوم الثقافي مقابل خمسين دينارا يأخذها، وأنت تعرفه جيدا، اتفقت معه على أن أرسل هذه الرسالة إليك على أنها من المنتدى، فاستخدم هو هويته الشخصية وهوية العضوية في المنتدى وإثباتات المنتدى. وقد فعلت هذا حتى أضمن وصول الرسالة إليك دون أن يقرأ أحد اسمي على المغلف؛ خاصة أن موظفي البريد يعرفونني.

ربما تظن أنني حصلت على عنوانك البريدي من ذلك الشخص مقابل خمسين دينارا إضافية، لا يا مالك، فأنت ربما مازلت تذكر أنك أعطيتني عنوانك البريدي؛ لأرسل لك بطاقة الدعوة قبيل زفافي، وها أنا أبعث إليك رسالة انتحاري وزفافي إلى القبر!

عذرا يا مالك، سأثقل عليك كثيرا في رسالتي هذه فأرجو أن تحتملني حتى النهاية، فأنا والله أكتبها وأنا حزين، أكتبها والدموع تملأ قلبي ووجهي... الكلام

كثيرا يا مالك، لذلك من الصعب أن أختار المهم منه، أو أن أرتبه بشكل منتظم كما يحسن ترتيبه الشعراء والكتاب، أنا معتاد أن أرتب حسابات والدي، وأن أنظم شيكاته ومواعيده... والدي يا أحمد سبب تعاستي في هذه الحياة التعيسة، وكان أيضا أحد أسباب انتحاري، رجل يعبد ربه بالمال، صلاته محسوبة بالمال، ظلوم جبار، كان يريدني أن أسير أينما يسير به حذاؤه، سوف تعرفه جيدا فيما بعد، سوف تراه وتجلس معه، أنا متأكد من ذلك، إن لم تذهب إليه أنت، فسوف يحضر إليك هو، وسوف أعود للحديث عنه في رسالتي هذه.

أخي مالك...

لقد أعجبتني شخصيتك بين الطلاب، كنت مثالا للاجتهاد والاحترام... وقد ازداد إعجابي بك واحترامي لك يوم عرفتك على خطيبتي رمز، لقد كنت مثلا في أدب التعامل والحياء، في حين كان باقي الزملاء ينظرون إليها بملء عيونهم.

ولكن الذي نقل إلي هذا الإعجاب إلى درجة من درجات الحب العليا في قلبي هي خطيبتي وأرملتي رمز... لقد كانت معجبة بأشعارك والأشعار التي كنت تنتقيها لنا، حتى صارت بارعة في انتقاء الأشعار الجميلة. كانت تكنُّ لك كل التقدير والإعجاب، وكان هذا يرقى بك أمامي، كانت تقرن اسمك دائما بكلمة «أستاذ»وصرت أنا كذلك، فأنت أستاذي وصديقي وحبيبي البعيد الذي لم أستطع أن أعمق معرفتي به لأنني كنت منشغلا بمواعيد الغرام مع رمز، وأنت أيضا كنت منشغلا بعملك ودراستك. تصور يا مالك كم كنت سعيدا عندما جئت أنت في المحاضرة الأخيرة مرتديا القميص الأزرق المخطط الذي كان يشبه قميصي تماما، أكتب إليك الآن وأنا ألبسه، وسوف أنتحر به لأنه يذكرني بك

دائما، ودائما أنت في البال أيها الحبيب. وقد أوصيتهم في وصيتي أن يضعوا هذا القميص معي في القبر ليكون معي شيء هناك يشبه شيئا معك هنا! ولم أوضح لهم السبب.

ليس مهما أن يكتب المنتحر وصيته أو رسالته إلى إنسان وثيق العلاقة به، أو قريب منه، ولكن المهم أن يرسلها إلى من هو أهل لها من أهل الحب والأمانة والوفاء والإخلاص والنقاء... وهذا هو أنت... الذي طالما حلمت أن تكون شخصيتي كشخصيتك...!

أعرف أنك لا تحتمل ثقيل الكلام ولا الكثير منه، وأعرف أنك منشغل بالدراسة والعمل الجاد، ولكنني أكرر اعتذاري وأقول بأنني سأثقل عليك بأسرار لا تحتملها جبال الأرض، ولا تتسع إلى هولها كل البحار والمحيطات! وبعد ذلك ستعرف لماذا أقدمت أنا على هذا الانتحار، أرجو المعذرة، فأنا الآن أبكي لأنني سأخرج من هذه الدنيا خاسرا، وأعرف أيضا بأنني سأخسر الآخرة، الانتحار شيء فظيع يامالك، ليتني أستطيع أن أنقل مشاعري الآن بلغة تشبه لغة الشعراء، كي أكون أنا آخر من يقدم على هذا الحرام في هذا الكون!

الانتحار حرام يا مالك، فظيع... ولكن إذا سقطت هذه الرسالة من يدي في البريد؛ فاعلم أنه صار أكيدا بالنسبة لي، لأفي بوعدي وأكون رجلا ولو مرة واحدة في هذه الحياة. أنت لا تعرف شخصيتي جيدا، أنا يا مالك ضعيف، والدي ذوبني فيه... في عرق قمصانه وحبر دفاتره، وعندما خطبت أردت أن أكون رجلا أمام رمز، فامتصتني امتصاصا أشد من الذوبان في قمصان أبي!

أنا يا مالك كنت أشعر بالملل الشديد في محاضرات الدكتور خالد، ولكنَّ هناك محاضرتين مهمتين من وجهة نظري وبالنسبة إلي أنا خاصة، لأنهما

تعبران عني تماما، واحدة هي التي تحدث فيها الدكتور خالد عن رواية «السفينة» وأنت تتذكرها أكثر مني، وكنت تتحدث عنها دائما، أكثر ما لفت نظري في رواية جبرا إبراهيم جبرا «السفينة» ذلك الشخص الذي انتحر لأنه شعر بالظلم وأحس أن زوجته تخونه مع صديقه على السفينة، كانت زوجته جميلة جدا، كانت تذكرني برمز، كنت أضحك من هذا المنتحر، وخاصة عندما كتب في رسالته: «دود... دود...» وقد قال عنه الدكتور خالد كلمة أعجبتني، قال عنه بأنه شخصية «عدمية»، كنت أقارن بين زوجته ورمز فأستعلي وأرى نفسي كالطاووس! كنت أضحك منه وأستغرب كيف لم يستطع أن يحافظ على زوجته وهي بين يديه، شعر بالظلم وباليأس عندما علم بخيانة زوجته، مع العلم أنه كان يخون زوجته هو الآخر، وعلى السفينة التي يسافران عليها، ومع ذلك رفض خيانة زوجته له، وانتحر بحبات من الدواء. أذكر آخر ما قاله الدكتور خالد عن هذه السفينة، بل أجمل ما قاله عنها: «المجتمع العائم ليس حلا» ومن شدة إعجابي بهذه العبارة العميقة كتبتها على كراستي الفارغة حتى الآن، وكأنها كراسة عائمة.

نعم يا مالك: المجتمع العائم ليس حلا، لقد حاولت قراءة الرواية ولكني لم أكملها، لقد استعارتها رمز من المكتبة وقرأتها هي، رمز تحب الشعر والروايات، أما أنا، أنا الذي حصلت على علامة أكثر منك، فلم أقرأ في هذه الحياة إلا رواية «عمارة يعقوبيان» والسبب هو الامتحان ولم أكملها!

أما المحاضرة الثانية، فهي المحاضرة الأخيرة، التي تحدث فيها عن الآباء والأبناء، كدت أبكي يا مالك في تلك المحاضرة بمقدار ما كدت أضحك في محاضرة السفينة من الرجل صاحب الدود! يامالك، هل تذكر كم قصة وكم

حكاية ذكرها الدكتور خالد، من القرآن الكريم ومن الحكايات والروايات والشعر في تلك المحاضرة، تصور أنني لم أجد أبي بين هؤلاء الآباء... حتى ذلك الأب الذي تخلى عن أسرته وتزوج في الفلم المصري الذي نسيت اسمه، لقد ندم في النهاية وصار يبكي ويبكي، كان أفضل من أبي، هل تظن أن أبي سيبكي عندما أنتحر، دعك من هذه، ربما يتباكى أمام الناس، ولكن، هل تذكر الرجل الذي حدث فرسه عن ولده وكان يبكي عندما مات؟ هل سيذهب أبي إلى بضائعه ومستودعاته وحساباته ويحدثها عني ويذكرها بي ويبكي أمامها؟ هل تظن أن أبي سينتحر بالطريقة التي انتحرت أنا بها ليشعر بالألم الذي شعرت أنا به كما فعل الشيخ عساف؟ في المقابل، لو خسر أبي مالا كثيرا أو غرقت له سفينة، أو احترقت جميع بضائعه فإنه سيجلسني أمامه ويحدثني عنها وعن تعبه فيها، وأنا متأكد من أنه سيبكي أمامي من أجلها...! هل يكفي هذا يا مالك عن أبي...؟

الآن فقط، في الوقت الضائع بدأت أفهم الحياة والناس، كثير من كلام الدكتور خالد كان يذكرني بالحياة والناس، ولكنني لم أكن أتابع معه. كم كنت أحسده لأنه يفهم الناس والحياة... ويتعامل بواقعية مطلقة. لذلك هو ناجح ومحبوب من الجميع. كان كلامه يؤثر في القلوب قبل أن يصل العقول، كنت أشعر أنه متعاون معي، وكنت أشعر أيضا أنه يحبني، ولكن لم يصل هذا الشعور إلى درجة أن يضع لي علامة لا أستحقها، بل تستحقها أنت، بل وأعلى منها... صديقي مالك...

هذه المرة بالذات أريد أن أخرج من جلد أبي، لقد اشتريت الكفن بنفسي، ووضعته في حقيبة جديدة تلفت النظر إليها، وعندما أنتحر سأنتحر قرب

الكفن وأضع وصيتي على الحقيبة! إياك أن تصدق أن عالم الأدب والرواية يجعلانك تفهم الحياة بل الحياة هي التي تجعلك تفهم الأدب...

أنا الآن ألفظ أنفاسي الأخيرة، ولكن بألم وقلق واضطراب؛ لأن الأمر الذي أريد أن أخبرك به يتهرب من يدي كما تتهرب الصابونة من بين يدي طفل صغير...

الله أكبر الله أكبر

أسمع الآن صوت الأذان يا مالك... لا أستطيع أن أحبس دموعي... قد يكون هذا آخر أذان فجر أسمعه:

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدا رسول الله

مؤكد أنك تتذكر صدام حسين على المشنقة، وتتذكر كيف لم يتمكن من إتمام الشهادتين... كنت أختلف مع رمز في وجهات النظر نحو هذا الرجل، كانت تنظر من منظور واحد فقط: حرمها وحرم والدها من المال وإتمام النجاح، وعندما حضر والدها من الكويت إلى هنا ورأى الفقر وحالته البائسة مات مرضا وكمدا... تصور أنها تحمله مسؤولية موت والدها...

كنت أقول لها: يكفي أن الرجل استشهد واقفا، فترد قائلة: من قال لك إنه صدام حسين، قلبي يحدثني بأنه ليس هو إنه أحد الذين يشبهونه، أقوال كثيرة تقول هذا أيضا، هذا هو رأي رمز... رمز الغامضة الغاضبة!

هل أطلت عليك يامالك، هل مللت مني ومن رسالتي كما كنت أملُ المحاضرات والكتب والأساتذة؟ تبًا لي... تبًا لي يا مالك... إما أن أكون مالا وإما مملا، ما فائدة الحياة إذن؟ حتى رمز كنت أشعر أحيانا أنها تملني، كانت تلاقيني

في أوقات ضيقة، ترفض أن أقابلها في الصباح، تقول إنها تكون متشائمة وقت الصباح والظهيرة، كم كنت أطلب منها بحرارة المحروم قبلة واحدة فقط، ولكنها تمنع وتتمنع!

هل أدخل معك في الموضوع المهم الذي هو سبب انتحاري؟ هل استطعت أن أمهد الطريق لي ولك لأحدثك عن رمز...؟ رمز التي أحببتها حبا عظيما، وازداد حبي لك أنت بسبب احترامها وتقديرها لك. لقد شعرت بمعنى الحب وعمقه فعلا، هي الحبيبة الجميلة الطموحة التي كان يحسدني عليها الجميع، وأنت الحبيب البعيد الغامض، كنت أحب رمز من أجل رمز، ولكنني كنت أحبك من أجل الحب، لم أكن مهتما أن أراك دائما، ولكن كنت تخطر ببالي دائما، كان حديث الطلاب عنك يسمو بك في الأعالي، ثم أحاول أن ألحق بك فلا أستطيع، أعرف أنك لم تقصر في خدمة أي طالب، كنت أتمنى أن أحتاجك في أمر وأطلبه منك لأخطر ببالك ولو قليلا مما تخطر أنت ببالي، ولكن من كان مثلي لا يمكنه أن يتجاوز حده، ويستخدم إنسانا أكبر منه قدرا، كنت أدخرك للمواقف الصعبة، وهاقد آن أوانها...! كنت أستغرب مزاح الطلاب معك، كيف يجرؤون على ذلك؟ ومع ذلك كنت كما أنت...؟

لا أخفيك سرا... إنني كنت مسرورا عندما كانت تصلني كلماتك الغاضبة لأني حصلت على علامة أعلى من علامتك، وكنت مسرورا بلقب «أحمد النائم» كنت أقول في نفسي إنه يعرفني وأخطر بباله، وسأكون مسرورا دائما إذا خطرت ببالك وأنا ميت... سمني إذا شئت «أحمد المنتحر» فإنه لشرف عظيم لي أن تسميني أنت بما تشاء من أسماء.

لا أدري هل أحدثك بالموضوع أم لا، ولكن هذه الرسالة لن تُسمّى رسالة منتحر إلا إذا بينت السبب، إنه سبب مؤلم، صاعق، فيه كل أنواع الألم والتعذيب، هل يعقل أن تحتمل الأرض مثل هؤلاء الناس على ظهرها، كيف ترضى بهم في جوفها عندما يموتون ويصيرون أحشاء لها...؟!

الموضوع يتعلق برمز، ستعرف الآن أنها اسم على مسمى... رمز الغامضة، المجهولة، العميقة مثل البحار!

كانت رمز تدرس عند أستاذ اسمه الدكتور جواد، وقد توفي رحمه الله، وربما تكون أنت قد سمعت بوفاته، حسنا... هذا الدكتور غفر الله له، كان مولعا بالنساء، وكان يراود رمز ويحاول معها، والطالبة التي لا تستجيب له فإنه يصب جام غضبه عليها. رفضت رمز الانصياع له مثلما رفضت أن تعطيني قبلة واحدة.

هل تفهمني يا مالك، ولكن بالله عليك يا مالك... بالله عليك... اكتم سري هذا، لا تفضحني ولا تفضح رمز، الذي حصل شيء فظيع، لا يكتم سره إلا إنسان مثلك، وأنا أحسنت الاختيار، فلا تخيب ظني بك بحق الله عليك!

كان الدكتور جواد مريضا، وهذا أمر عرفنا به أنا ورمز متأخرين، كان مرضه مفاجئا وسريعا وكان موته عجيبا... يبدو أن الدكتور جواد سامحه الله، رغم مرضه الخطير ظل حاقدا على رمز، رسبت رمز في المادة، لا أريد أن أظلم الدكتور، ربما كانت هذه علامتها الحقيقية، المهم غضبت رمز، وغضب والدي الذي كان يعد لها وظيفتها في شركته «مديرة علاقات عامة» حسنا... اتصلت بي رمز وقالت: أرأيت ما فعله جواد القواد؟ فقلت لها: يارمز ما هذا اللفظ البذيء؟ فقالت: آسفة يا أحمد، ولكنه رسبني، ماذا أفعل...؟ لقد جن جنون والدي، وقبل أن يطلب مني أن أطلقها، أو بمعنى آخر: قبل أن يطلقها

هو، أصدر قرارا بفصل أخيها رامز من الشركة، ستقول: ماذنبه؟ حسنا... والدي لا يعرف إلا الخط المستقيم، كم من موظف وموظفة خرجوا من الشركة مفصولين، سمعت إحداهن تقول: الله يبتليك بأولادك... وها قد آن الأوان!

بعد أيام من فصل رامز من الشركة، اتصلت بي رمز بصوت مخنوق وخاطر مكسور، لم تكن رمز التي أعرفها، لم أرغب بإخبارها عن موضوع الطلاق، إذ كنت قد قررت في نفسي أن أخرج من جلد أبي، وأتزوجها رغما عنه! ولكن رمز نفسها لم تمنحني فرصة أن أكون رجلا ولو مرة واحدة في هذه الحياة!

أتدري لماذا اتصلت رمز؟ طلبت مني مقابلتها فقابلتها، أخبرتني بأن الدكتور جواد مريض جدا، وقد استفحل به السرطان، كانت شديدة الحزن عليه طلبت مني أن نزوره معا... هي تسامحه وهو يسامحها. كان كلامها مؤثرا، وأنا كنت محتاجا لمثل هذا الكلام العاطفي الذي حرمني إياه والدي سامحه الله.

قالت: سنزوره غدا، فقلت لها: غدا الجمعة، فقالت: زيارة المريض لم تحدد بيوم أو ليلة، ومن أجل المسامحة يجب أن نذهب في وقت لا يكون فيه أحد، الثامنة صباحا... ما رأيك فقلت لها: يا رمز... فقالت: المريض لا يعرف معنى الزمن، الدكتور جواد كما سمعت، بانتظار الموت، يجب أن أرتاح يا أحمد... أرجوك.

تخيل يا مالك... حتى موعد الزيارة الرديء لم أستطع إقناعها بتغييره! ذهبنا إلى بيت الدكتور جواد، كانت الساعة الثامنة ، تأخرت زوجته حتى فتحت لنا الباب وحتى أدخلتنا، كان واضحا أنها منشغلة، فقلت لرمز: أرأيت...؟ فقالت: يعني.. الموضوع انتهى... دخلنا غرفة الدكتور جواد وكان مستيقظا، اعتذرت زوجته منا وقالت إنها ستكمل تعقيم المعدات الطبية وهذا يستغرق وقتا.

ما أعجبني في رمز عندما رأيتها ذلك الصباح أنها كانت تلبس العباءة، وغطاء يغطي نصف شعرها، فقلت هذا بداية الطريق نحو الحجاب، الذي كانت تعارضني فيه بشدة!

كان الدكتور جواد، وأرجو أن تكمل القراءة يا مالك وأن تحتمل كل شيء أرويه لك الآن... انتبه جيدا... أرجوك... أرجوك... كان غائر العينين، كان من السهل أن يعد الإنسان عظمات يديه، وأن يعاين عظام وجهه، كانت لحيته طويلة، لم تمهلني رمز للتحدث معه، قالت، واستمع لما قالت:

جوجو.. ما أخبارك... كيف الأوضاع... تمام؟ طيب يا جوجو...

خلعت غطاء رأسها، وهي تغني: جوجو... جوجو... كانت عباءتها سهلة الخلع، ففكتها من الأعلى، وظهرت مفاتن صدرها...

أمر غريب يا مالك أليس كذلك...؟ انتظر ماهو أفظع من ذلك! بدأت تخلع شيئا فشيئا وتُري ذلك المريض مفاتنها، وهو يشيح بوجهه ويده اليسرى، إذ كانت اليمنى مغروز فيها الابر والمغذي... كنت أنا مثل الحيوان تماما، لا أستطيع أن أفهم شيئا، أو أفعل شيئا، كان أمرا أشد من أساليب التعذيب التي يتحدثون عنها في محاكم التفتيش أو في غوانتنامو، نهضت ووقفت على قدميها، كان الدكتور جواد قد أشاح بوجهه إلى اليمين وأخذ يبكي بكاء مرا...

اقتربت مني وهي تتلوى مثل الأفعى، أحسست بما لا أستطيع أن أصفه أو حتى لا أستطيع الإحساس به، كانت فاتنة بحركاتها، عيناي تكادان تغرغران بالدمع من منظر الدكتور جواد، وغريزتي ترى نفسها أمام فرصة قد لا يسمح لي والدي بتعويضها، عدا عن كل ذلك، كانت هي الأقوى، سحبتني إليها وكان ما كان من قرف المتعة، وغرابة بني الإنسان!

هي التي اغتصبتني وأشعلتني دونما شعور مني أو قوة، كانت تعبث بكل كياني، كنت أتحاشى النظر إلى وجه ذلك المريض المسكين! كانت مشاعر اللذة تختلط بمشاعر الخوف وعدم فهم الأشياء، عندما انتهينا أو عندما قررت رمز الانتهاء نهضنا، نظرت أنا إلى الدكتور جواد، كان فمه مفتوحا قليلا، وعيناه شاخصتان في السماء، التفت إلى رمز وقلت لها: مات...!

فقالت: لا عليك، هيا نخرج أسرع... فناديتها... خرجت وسحبتني من يدي ولم يشعر بنا أحد، وعندما سرنا قليلا بسيارتي، قالت رمز: قف، فتوقفت، وراحت رمز ترقب باهتمام فتاة قادمة رغم أنها كانت على مسافة بعيدة نسبيا؛ إلا أن رمز استطاعت تمييزها من ملابسها، أخبرتني رمز بأنها الفتاة التي كانت تراقب عليها في الامتحان، امتحان مادة الدكتور جواد، حتى ملابسها هي نفسها... دخلت الفتاة منزل الدكتور جواد وفي يدها كيس يظهر أنه كيس طبي فيه أدوية.

ستظن الآن أنك عرفت سبب انتحاري... كلا يامالك ليس هذا هو السبب، إن حبي لرمز يأبى أن يحطمه عمل كهذا، وإن كان عملا إجراميا حقيرا. أنا يا مالك متعب... حطمني أبي، وأعماني الحب، وقتلتني رمز!

بعد ساعات من هذا العمل البشع الذي قامت به رمز وقمت به أنا، خلوت إلى نفسي، فكرت كثيرا بالموضوع أقصد زيارة الدكتور جواد، صرت أفكر وأحلل الأمور وأحاول ربط الأشياء بعضها ببعض... ألم أقل لك إنني بدأت أفهم الناس، ولكن بعد فوات الأوان! رحت أتذكر ما فعلته رمز، حركاتها ورقصها سأفترض أنها تعلمت هذا من الأفلام وأغاني الفضائيات، حسنا... من أين تعلمت هذا العنف الجنسي؟! كيف عرفت أسرار الرجال، إنها أفعى نفثت سمها في حياتي اليابسة كوجوه الموتى الذين سأزورهم قريبا!

كنت كأنني لست موجودا! عندما شعرت رمز بأنها ستخسر كل شيء، المال والوظيفة والشركة قررت أن تجرب الجنس معي، لا حبا بي، فقد اكتشفتُ في الوقت الضائع بأنها لا تحبني، كانت تريد أن تكسب مني كل شيء، حتى الجنس، ولكن كل شيء في حينه...

باختصار يا مالك -فقد أتعبتك معي- صرت أفكر بخيانة رمز، بل بخياناتها، وحين تأكد لي هذا في اليوم التالي حين أتتني إلى غرفتي هذه، ومارسنا الأمر بأريحية كانت أكثر احترافا، وأشد احتراقا، تصور أنها كانت تشعر بي حين أوشك على الانتهاء!!

ضاجعتها مرتين فقط، وعلى يومين متتاليين، جعلتني أكرهها وأتقيؤها، باختصار جعلتني أنتحر لأنني تيقنت أنها على دراية بمثل هذه الأمور، بمعنى أنها كانت تخونني، وهذا أهم أسباب انتحاري... ليست هي رمز، هي صورة... رمز عبارة عن صورة فقط، فارغة من الداخل من كل شيء... كم مرة خانتني؟ هل كانت تخونني خلال الخطبة أم أنها كانت تفعلها قبل الخطبة ثم كفت وتابت عن ذلك؟ أم هما الاثنتان معا؟

سأخبرك بشيء آخر، وأستحلفك ألا تخبر أحدا... قبل خطوبتي وخلالها كنت أخرج مع سكرتيرة في شركة والدي، أخطأت معها كثيرا، كانت فاتنة ولعوبا، مارست معها مقابل دنانير أضعها في صدرها، ومقابل رحلات وحفلات. أظنها أيضا فتنت والدي مع أخريات، لا أريد أن أتحدث عن رمز وأنسى نفسي، فأنا لست معصوما، رمز هي السبب كانت تحرمني مجرد القبلة... اكتم السر بربك، فما زال لحمي طريًا.

هل تبكي معي الآن يامالك؟ أم أنك تقرأ فقط؟ هل يدعو كلامي إلى البكاء؟ أم هو مشهد تمثيلي صاخب؟ الحياة مظلمة، صار يخيل لي أن جدارا من الحجارة

يعلو شيئا فشيئا في عيني، أبي ورمز وحزني على أمي التي ماتت قهرا من ظلم أبي، ولا تنس ظلمة الجامعة وسوادها؛ فأنا دخلت الجامعة في البكالوريوس من خلال التعليم الموازي، الذي قال عنه الدكتور خالد ذات يوم: التعليم التجاري، وفي مرحلة الماجستير أدخلني أبي بالواسطة، ولا أستبعد الرشوة التي احترفها مع مسؤولين كبار.

يا صاحبي البعيد، لو كنت أمتلك اللغة لاعتذرت إليك كثيرا، ولكن اقبل اعتذاري من غير اعتذار؛ لا وقت لدي إلا لنشر الهم والغم في قلبك وفي قلب شقيقتي نجوى، كتبت لها رسالة وسوف أضعها في حقيبتها عند انتحاري، لقد حدثتها عنك في الرسالة، أتدري ماذا قلت يا مالك...؟ ولكني أستحلفك بالله أن تكتم السر، نجوى فتاة لا تحتمل أي تجريح، أو إساءة، بربك تصرف بحكمة كما عهدتك.

قلت لها إني أرسلت رسالة إلى مالك، هذا الصديق البعيد، الذي سيكون قريبا عندما يأتي ويتزوجك، بالله يا نجوى اقبلي به، هو فقير، ولكنه غني النفس متميز بين الطلاب، يفرض احترامه على الكبير والصغير...

أبي يا مالك، سيرضى بالزواج إذا عرف أنني أوصيت بذلك... أبي يهمه أن يظهر رجلا مجتمعيا متدينا أمام الناس، وإن كلفه ذلك بعض المال! سيوافق أيضا كي يدفع كلام الناس عنه عندما يتهمونه بأنه كان سبب انتحاري... وقلت لها أشياء ربما تطلعك عليها نجوى بعد زواجكما إن شاء الله...

بالله يا مالك لا ترد دعوتي، نحن في مجتمع أهل الشاب هم الذين يركضون خلف الفتاة وأهلها، فهل ستقتلني ثانية برفضك هذه الدعوة ؟ إذا لم أستطع أن أبعث لك ببطاقة دعوة زفافي، فإنني أدعوك للزواج من شقيقتي في رسالة

أحزاني وأتراحي! أملي بك كبير أيها القلب الكبير... عندما تتزوجان، بالله عليكما، لا تتأخرا عن زيارة قبري، ابكيا عليّ، دعها تنزف دمعا ودما علي، دموع الأخت غالية يا مالك، تحرق القلب والوجدان، تفلق الأكباد وتضرم الأحشاء، مع أنني أوصيتها ألا تبكي عليّ حتى لا أقتلها مرتين...!

نجوى جميلة يا مالك، محبة للحياة وللناس، لقد زودتها برقم هاتفك، واليك رقم هاتفها: (...)

يا مالك... لو كان كل الأصدقاء مثلك، طيبين محبين للناس، لو كان الناس كلهم يدا واحدة وقلبا واحدا... ولكن انتهى كل شيء، كفى... كفى... الانتحار يا مالك هو أقرب الطرق وأخصرها لنسيان رمز، رمز التي كان احترامها لك صادقا، لم تكن تطيل الحديث عنك، كان الحديث عنك مرهونا بالشعر فقط، ولكنها تعلمت منك فن الانتقاء والاختيار، وشعرت بمتعة البحث عن أجمل الأشعار. لذلك ازداد حبي لك يا مالك، رأيت فيك عالما من الصفاء ورقة الشعور... أنت كاتب ممتاز، اجعل من قصتي رواية ذات يوم، ولا تسمني باسمي الحقيقي، ولا تسمِّ رمز باسمها، اكتبني رواية أو قصة أو قصيدة، واجعل من حكايتي قصة مذهلة تتناقلها الألسن والعيون والقلوب .. لا بأس لو اطلع عليها الدكتور خالد فهو قارئ متعمق في الروايات، وله قدرة عجيبة في فهم الشخصيات وربطها بالواقع.

يا مالك...

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

والآن...

الوداع يا مالك، يا حبيبي الأخير، أوصيك خيرا بنجوى، أوصيك أن ترعاها

وتدللها، أوصيك أن تأتي معها لزيارتي، سأكون هناك في فسحة من الوقت، وفي ضيق من الأرض... نجوى يا مالك تحب القهوة المرة، أرجو أن تعود نفسك على ذلك مثلي، فنجان القهوة المرة مع نجوى أحلى من الدنيا وما فيها...

هنيئا لكما يا مالك ويا نجوى...

أما أنا... فأنا شخصية عدمية... سأترككم تعيشون وحدكم... وأموت وحدي... حبات قليلة وينتهي كل شيء... دود ... دود ...»

(٣٢)

أنهى مالك الرسالة، وضعها جانبا، وتقيأ كل أملاح البحار التي تجرح أحشاءه وتحرقها... شعر أن البحار كلها سجرت في جوفه وعينيه الدمويتين...

رفع الهاتف واتصل بالدكتورة أمل، فردت عليه بصوت النوم والخوف والقلق:

- آلو...!

- أريد أن أسألك سؤالا واحدا فقط، لا أريد...

- عفوا من يتكلم...

- لا أريد أن أتفلسف مثل الفلاسفة وأسألك الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة...

- عفوا يا أخي... من يتكلم...

- مالك... أنا مالك...

- يا مالك...!

- يابنت الناس اسمعيني جيدا: نحن أبناء الماء أم أبناء التراب...

- يا مالك أرجوك...

- عندما مات الناس جميعا وغرقوا في الطوفان، جعل نوح على السفينة من كل زوجين اثنين... أليس كذلك؟

- ... ؟ ... !!

- تكاثر الناس الذين على السفينة... نحن إذن أبناء آدم على التراب... أم أبناء نوح على السفينة؟ نحن أتباعك أنت على التراب، أم نحن أتباع الدكتور خالد على السفينة؟ بمعنى أوضح: هل نحن مجتمع عائم أم مجتمع ثابت دائم؟

- لا يا مالك نحن أبناء السفينة...

- هكذا إذن...

- بالطبع يا مالك، اقرأ تاريخ الطبري مثلا... أو حوار جلجامش مع أوتنابشتيم في ملحمة جلجامش مثلا... ثم راجعني بالأمر، سلام يا مالك.

- انتظري لحظة... إذا كان ذلك كذلك، فإن أحمد لم ينتحر، أحمد لم يقتل نفسه، أحمد هم قتلوه... نعم، قتله الظالمون... لم ينتحر...

شعرت الدكتورة أمل بخوف شديد، وامتلأ قلبها بالرعب جحظت عيناها في فضاء العتمة... أغلقت الخط ثم أغلقت الهاتف نهائيا وعادت ترتجف في فراشها، وتابع مالك صراخه: نعم، أحمد لم ينتحر! فنحن أبناء السفينة، والسفينة مملوءة بالظلم، والظالم قاتل، والمظلوم مقتول، صحيح يا أمل، لو أنك قلت إننا أبناؤك لاختلت الموازين، وانقلبت المعادلة، نحن أبناء السفينة... أبناء الدكتور خالد... وأبناء الرواية... أبناء المجتمع العائم، وأبناء القتل والظلم والدمار... السفينة... السفينة.

ظل يردد: السفينة... السفينة... حتى راح في نوم عميق!

أما الدكتورة أمل فقد استيقظت صباحا على كوابيس وأحلام مزعجة، وهي تقول لنفسها: ما الذي فعله هذا الأحمق ؟! يتصل بي في منتصف الليل ليسأل عن السفينة والتراب والجاج!

ظل مثل جثة منتحرة حتى استيقظ على صوت هاتفه، كان يبدو هاتفا قلقا، تناول الهاتف وكان يخشى أن يكون فارس:

- يا مالك... ما الذي فعلته...

- آنا آسف يادكتورة، أنا الآن متعب، وأنت أيقظتني من النوم...

- أما أن ترعبني بهاتفك بعد منتصف الليل، فهذا أمر عادي...! يا مالك أنت لست هكذا، ما الذي جرى لك؟ ومن الذي قتل أحمد...؟

- فارس...

- نعم...!

- لا... لا... لا أدري... أرجوك دكتورة أمل، لقد حلمت حلما مزعجا ليلة أمس... أرجو المعذرة...

- إذن... لا أحد قتل أحمد...

- لا أحد

- لا عليك، متى ستأتي إلى الجامعة...؟

- الجامعة... الجامعة... لا أريد الجامعة... لا أريدها... هل تفهمين...

- مالك...!

- الجامعة دار عرض للأزياء... ألا تعلمين أن كثيرا من أهل الخليج، يأتون ليحوموا حول جامعاتنا بسياراتهم الفاخرة...؟!

- يا مالك

- أنتم... أنتم الأساتذة الأفاضل... ماذا تقدمون لنا... قائمة المراجع وورقة الامتحان...؟!

- تريدنا أن نصب المعلومات في عقلك، أم نعلمك اللغة بالنشيد مثل أطفال الروضة، كم مرة جئت تحدثني عن الفائدة العظيمة التي تستقيها من الدكتور خالد؟ وتحدثني عن السفينة التي نخرت رأسي بها، حتى صرت تحلم بها في جوف الليل، يا أخي يكفيك خسارات... انتبه لنفسك...

- أنتم... أنتم... أين دوركم في حل مشكلاتنا، ما موقفكم من رفع الرسوم الجامعية كل عام أو كل عامين، طبعا تؤيدون ذلك لتزداد رواتبكم...

- أنت تعرف مواقفي ومواقف أساتذة القسم...

- لا مواقف لكم... أنتم تتعولون وتتعلمنون وتفصلون العلم عن الحياة عن الدين، تبحثون عن الأضواء والمجلات والنشر والمؤتمرات، قبل عشرين عاما كان أستاذ الجامعة يقود اعتصاما أو مظاهرة ضد رفع الرسوم، أو ضد قرار سياسي، هل تذكرين... هل تذكرين الأساتذة الذين تم فصلهم بسبب مواقفهم المشرفة؟ أنت نفسك حدثتني عن مواقف الدكتور علي والدكتور عفيف والدكتور كمال؟

- ومظاهرات الطلاب اليوم واعتصاماتهم يا مالك، تكون احتجاجا ضد نتائج مباراة كرة قدم، أو ضد نتائج نجم الشاشة، أو البرامج الساقطة، آرت أكاديمي وستار أكاديمي، الطالب قبل عشرين عاما كان يساعد الجامعة في حل مشكلاتها، والآن...

- دكتورة أمل، قبل ثلاثة أسابيع أردت استعارة كتاب من المكتبة، كانت شبكة الحاسوب معطلة، إذن لن تتم عملية الإعارة، في الوقت نفسه أنا دفعت ضمن

الرسوم خدمات المكتبة، أستاذ المادة لن يقبل هذا العذر إذا تأخرت بتسليم البحث يوما أو يومين. هل تقبل إدارة الجامعة أن أتأخر بدفع الرسوم يوما أو يومين؟ سيترتب على ذلك غرامة أليس كذلك؟ إذن نحن في شريعة غاب، لا يسمحون لنا أن نؤخر الرسوم، ولكن يسمحون لأنفسهم أن يعطلوا الإعارة التي دفعنا رسومها سلفا. وهذا أبسط ما يمكن أن أذكره. من يوقف أولئك الأساتذة التجار الذين يتاجرون بكتبهم الفارغة، والمصورات التافهة من أجل دنانير معدودة نهاية كل فصل، حين يأمرون طلابهم بشراء النسخة الأحدث، أو الحداثية، بحجة التعديلات المهمة جدا عليها؟ سمسرة واضحة ولا أحد يتكلم... هل تستطيعين مخاطبة المسؤولين الكبار في الجامعة وتشرحين لهم مسألة الرسوم ومسألة الإعارة التي شرحتها لك الآن، أم أن البرستيج لا يسمح لك بمناقشة مسائل تافهة مثل هذه المسألة؟ إذن كيف ومتى ستسألين الرئيس عن دور جامعاتنا في تحويل مجتمعنا من مجتمع استهلاكي إلى إنتاجي؟ وعن مسؤولية جامعاتنا في إخراجنا من بؤرة التصليح إلى فضاءات التصنيع؟

- نعم يا مالك أستطيع ... وبكل سهولة، وعن كل هذا وغيره...

- تضعينها شكوى على مكتبه وانتهى الأمر... والنتيجة...

- ما رأيك أن أطلق عليه الرصاص من أجل أن تستعير كتابا؟

- نعم، هذا هو الصواب، لو تم ذلك لانتشر العدل في الجامعة... الحلول الجذرية خير من الحلول المؤقتة والمؤجلة، نحن فاشلون لأننا أصحاب التفكير باللحظة الأخيرة، لا نحسب حسابا لمشكلاتنا منذ البداية، لا نخطط، لو كنا كذلك لما انتحر أحمد...

- أنا أقدر يا مالك أن وفاة المرحوم أحمد قد أثرت في نفسك، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل؟

- ماذا سأفعل؟ سترين، الوحيد الذي يستطيع أن يفعل شيئا أو أشياء هو أنا، أحمد لم ينتحر، أحمد قتلوه، نعم مقتول ظلما وزورا وبهتانا... سيجيء يوم تعلمون كم كنتم قتلة وأنتم لا تؤدون رسالتكم التي من أجلها خلقتم ومنها تأكلون، دكتورة أمل، لقد غركم الأمل، وسوف ترون ما العمل، الوداع يا دكتورة أمل... قبل أن تجديني سأكون قرب أحمد، هناك... بعيدا عنكم، هنيئا لكم عولمتكم وعلمنتكم وعمولاتكم وعملاتكم، الوداع يا أمل... الوداع... دود... دود... دود...

- مالك... يا مالك...

حاولتُ الاتصال به، كان هاتفه مغلقا!

(٣٣)

أحضر الأدوية كلها، قدّر أنها لا تكفي لموته، فكر بالسكين، كلا، لا يحب مشاهدة الدم، تذكر صدام حسين أو شبيه صدام كما تقول رمز، كيف يلف الحبل؟ كيف يربطه؟ قال في نفسه: صدام أعدم على الطريقة الإنجليزية، عقدة الحبل على جانب الرقبة، ليحدث كسرا في العنق ثم شللا ثم موتا، كل هذا خلال ثوان سريعة، لذلك صدام حسين لم يتحرك إطلاقا عند إعدامه... ولكن كيف سأربط الحبل وأضمن نجاحا لعملية خلال ثوان وأستريح، كان طول الحبل تسعة وثلاثين مترا، بعدد الصواريخ التي أطلقها العراق على الكيان اليهودي البائد، لو كان لدي الآن تسع وثلاثون حبة دواء لأنشدت إلى الأبد: دود... دود... دود... سأشنق نفسي بالطريقة التقليدية، عقدة الحبل من خلف العنق، ولكنهم يقولون إن المشنوق قد يموت بعد ربع ساعة وهو يصارع الهواء والحبال والحياة والموت، من الممكن أن أندم خلال الربع ساعة هذه، لن

أستطيع أن أفك نفسي، ولن أستطيع الصراخ، إنه موت مؤلم، نعم... تذكرت... وجدتها... ذلك الشاب الذي شنق نفسه مرة في عنق بقرة، ربط عنق البقرة ثم ربط عنقه وأخذ يضرب البقرة حتى سحبته وشنقته وداسته... ولكن لا أحد يربي البقر في هذا الحي... نظر إلى الكهرباء... نعم هي الكهرباء الصاعقة، هذا السيل من الإلكترونات الذي يتدفق في الأسلاك، لماذا لا يفرغه في شراييه وخلاياه... الكهرباء... الكهرباء... إلكترونات قليلة وينتهي كل شيء... دود... دود

صب الماء على ملابسه وجسده وقدميه، استلقى في سريره وأخذ يقرأ رسالة أحمد، يريد منها شحنات قوية وكثيرة ومثيرة كي تدفعه على الانتحار، أخذ يقرأ ويقرأ، بدأ يشعر بالحقد... رمز... والد أحمد... الدكتور خالد... الظلم... الحياة... الموت... الرواية...

أنهى قراءة الرسالة، لم تدفعه على الانتحار، أحضر كتاب الدكتور خالد، كتاب يزين الانتحار بطريقة سلسة:

الانتحار في الأدب العربي

دراسات في

جدلية العلاقة بين الأدب والسيرة

هذا اسم كتابك يا دكتور خالد، الأدب والسيرة، الأدب خيال والسيرة واقع... إذن لماذا تبتعد عن الواقع حين تكون في الواقع...؟

في الواقع، أنت تحول الواقع إلى خيال، وتسحب السيرة وفن السيرة إلى عالم الخيال... الذي تريد أن تقوله: لا يوجد شيء اسمه واقع كل شيء قراءة... كتاب... صحيفة... الواقع في كل هذه الأشياء... في الواقع...

إن الواقع واقع في موقع إلكتروني، وصرنا نسمع الآن بما يعرف بفقه الواقع، وأحيانا يكون الواقع واقعا بين السطور، ولكن من الجميل أن تبحث عن الواقع خلف السطور... الذي أريد أن أقوله... إن الواقع لايقع بيننا، إنما يقع في واقع بين منزلتين من واقع اللاخيال واللاحياة، كيف إذن نوفق بين ألوان الواقع وألوان الطيف الشمسي... في الواقع يا دكتور خالد نحن مجتمع واقع، والواقع أيضا يأتي من...

طرق شديد على الباب، شعر بالخوف، نظر من عقب الباب المرتفع عن الأرض قليلا، مجموعة من الأقدام، استطاع من بين الأقدام تمييز حذاء فارس ذي العامين. فتح الباب، وقبل أن يعاين الواقفين فوجئ بفارس يهجم عليه، يحتضنه ويقبله ويصيح متباكيا:

- حبيبي يا مالك... والله خفت عليك... لا تجرح قلبي مثلما جرح أحمد... قلبي... أرجوك... والله يا أخي...

ولكن مالك فوجئ بعدد من رجال الأمن والدكتورة أمل تقف خلفهم، كانت الفرحة بادية على وجهها، وبعد جدال بين ضابط الأمن ومالك، رفض الأخير تفتيش بيته دون كتاب رسمي، فأخبره الضابط أن هذا رأي الدكتورة أمل، فعجب مالك في نفسه؛ لأن الدكتورة أمل التي لا تستطيع حل مشكلة إعارة كتاب، باتت تصدر أوامر بتفتيش البيوت.

لم يستطع الضابط إقناع مالك، فأبقى رجلي أمن على باب بيته، ذهب مالك معهم وكل تفكيره برسالة أحمد الموجودة على السرير!

- هل ترى أنه من الدين والأخلاق أن تموت منتحرا ؟

- طبعا لا...

- هل حاولت الانتحار؟

- من قال ذلك؟

- أنت تعرف من قال ذلك... بلاغ الدكتورة أمل...

- ياسيدي، الدكتورة أمل أستاذتي، وأنا أجلها وأقدرها، ولكنها استفزتني على الهاتف، وأنا مهموم مغموم منذ وفاة أحمد رحمه الله، فأردت أن أشفي غليل صدري قليلا، لم أحسن الكلام معها؛ فقلت لها: سأنتحر مثل أحمد...

- ولماذا أغلقت الهاتف؟

- حتى لا تتصل ثانية، وحتى تظن أن كلامي صحيح فيزداد قلقها...

- ولماذا لم تسمح بتفتيش البيت؟

- لأن القانون لا يسمح، وأنا أسير مع القانون سواء أكان في صالحي أم في غير صالحي، وأنتم رجال الأمن والقانون من باب أولى وأحرى أن تسيروا على القانون، وأنتم أهل لذلك، وأنتم حماة هذا الوطن. ثم إنني لم أفعل أي شيء يا سيدي، وإذا سمحت بتفتيش البيت ستزداد الشكوك حولي، وربما تقولون إنني أخبئ أدوات «الانتحار» كما تزعم الدكتورة أمل في مكان آخر.

- الدكتورة أمل تقول بأنك ناقم على الحكومة والجامعة والحياة...

- على أية حال سامحها الله... أنا دائما أحب لهذا الوطن أن يظهر بأبهى حلة، وأجمل صورة، فكنت أنتقد كثيرا من الأشياء أمامها لأنها تسمح لنا بالحوار والنقاش بحرية، بعض الأساتذة يروق لهم أسلوب قمع الطالب، ولكن هم سيظلون أساتذتي وأحترمهم جميعا...

خرج مالك من مديرية الأمن وقد تنفس الصعداء، كيف استطاع أن يتخلص من هذا الكابوس الأسود بهذه السهولة... كان يشعر بالحقد على الدكتورة أمل...!

قال لهم فارس وهما خارجان بينما غادرت الدكتورة أمل وحدها:

- لا عليكم، أنا سأقدم له النصائح، والله يا سيدي بارك الله فيكم، لقد وصلتم إليه في الوقت المناسب، والله إنكم رجال الوطن، جزاكم الله خيرا، والله عملكم في ميزان الحسنات إن شاء الله... مالك والله خسارته حرام... جزاكم الله كل خير... السلام عليكم...

مالك في طريقه إلى البيت غارق بالتفكير، يصحو من يقظته على صوت فارس المتكرر:

- يا أخي جاوبني...

- اهدأ يا فارس... اهدأ...

- يا أخي والله أنا أكلمك وأنت غارق بأحلام اليقظة... هل تفكر بفتاة جميلة أم غير جميلة، هل هي سوسن أم دلال؟

- اخرس يا فارس... اخرس...

- الآن نشرب الشاي في بيتك ويهدأ بالك. أنا أحبه حلوا كما تعلم، مثل هيفاء.

راح مالك يفكر بمنكر ونكير الواقفين على باب بيته، كيف سينصرفان الآن، متى ستأتيهما الأوامر كي يغادرا باب البيت؟ قال في نفسه: الآن صار واجبا أن يدخلا وأن أقدم لهما الضيافة، سبحان الله! سيرفضان الدخول، ومن الواجب أن أصر عليهما بالدخول، ما هذه المفارقات وما هذه الحياة، ما هي القوانين الثابتة في هذا الكون، وماهي القوانين المتحولة؟

لم يجد مالك الشرطيين، ولم يجد أثرا لهما، دخل البيت متعبا... صاح غاضبا بوجه فارس:

- اشلح كندرتك...

- طيب يا أخي والله هذه العصبية... لا أعرف ماذا جرى لك، لم تكن هكذا... أف...

وعندما خلع فارس نعله الأيمن ورأى مالك القذارة صرخ بوجهه:

- فارس... البس كندرتك فورا، أرجوك... لا تكمل خلع الفردة الثانية...

- يا أخي والله حيرتني، أنت غير طبيعي هذه الأيام...!

أراد مالك أن يهدأ، أن يتوحد مع نفسه، أعد الشاي سريعا كي يتخلص من وجود فارس، صب الشاي وذهب ليقدمه، وعندما وصل إليه رأى الكارثة بأم عينيه، رمى الشاي إلى أعلى السقف، فصار السقف يمطر شايا، وصار مالك يمطر غضبا وصراخا...

- فارس...

اهتزت الجدران والحيطان واهدودرت الدار وتشنجت الأعمدة والأسلاك وتوقفت الإلكترونات في كهرباء شراييه من الغضب، كادت تصيبه جلطة تنحره نحرا مبينا، صار نبضا من الشعور واللاشعور...

رد عليه فارس متظاهرا باللامبالاة:

- يا أخي والله جفّلتني...

- فارس...

- يا أخي مالك... ماذا حصل، ماذا فعلنا، والله كأنني المسؤول عن السقوط العربي في المحيط والخليج!

تناول مالك رسالة أحمد من يد فارس بغضب وحقد شديدين... وصاح:

- من أي فصيلة الجن أنت؟! من أي مقبرة خرجت...!

- والله أنا أقدر ما أنت فيه... ولكن...

- اخرس

(وقد وضع يده على فمه بقوة)

- يا أخي لا أريد شايك، السلام عليكم...

أغلق مالك الباب بقوة، وعاد كئيبا لا يعرف كيف يجمع أفكاره، كلما اجتمعت لديه أفكاره جاء من يبعثرها، شعر أنه يكره نفسه، يريد الخروج من ذاته، يريد كل شيء ولا يريد شيئا، لا يعرف كيف يتحرك الآن وكيف يخاطب نفسه، اكتملت دائرة الظلمة والظلموت...

ليس بعد هذا من ظلم، أجل، أي ظلم في الحياة أبشع من هذا...

رن الهاتف بقوة، أعد مالك العدة لتوجيه اللعنات:

- أنت... أنت يا ابن المحترم، إذا اتصلت مرة ثانية سألعن...

- ما هذا يا مالك...

- من... دكتورة أمل...! دكتورة أمل أرجو أن تكون هذه آخر مكالمة بيننا، لا دخل لك بحياتي، أريد ولا أريد... لا دخل لك بي، لا تتدخلي بأي شيء... أنا شخص أناني، حر بحياتي... عندما أنتحر لا تترحمي علي، رحمة ربي وسعت كل شيء... ثم... ثم من أنت حتى تفتشي بيتي... لا أحتاج نجدتك ولا مساعدتك، لست مسؤولة عني، لا أحد مسؤول عني... افهمي كل... افهمي يا بنت الناس... لا تتصلي ... لا تتصلي... مفهوم...

- مفهوم يا مالك... مفهوم... الله معك...

رأى الحياة قبرا لا يتسع له، الأسرار المكتومة في صدره لمن يبوح بها... لمن يشكو حزنه، لمن يبث شكواه... نظر إلى السقف الماطر شايا وقال بانكسار:

هل ستغفر لي يارب... هل أستحق المغفرة...! عظيم أنت يا الله... سآتيك بقراب الأرض خطايا، وأنت كتبت على نفسك الرحمة... تناول رسالة أحمد وتفقد أوراقها، فكانت كما هي، صار يشك ويخاف من كل شيء... حدث سمعه وبصره وفؤاده معا:

سبحان الله! سبحانك ربي! ما هذه المفارقة الجديدة! كيف استطعت أن أتخلص من كل حيل الحكومة ودهائها هذا اليوم، كيف حافظت على رسالة أحمد من أعين الشرطة والمخابرات والأجهزة البشرية والتكنولوجية، ويأتي بكل بساطة ولد تافه يقرأ رسالة أحمد! ما هذه المفارقات العجيبة... سبحان الله! ليتها وقعت في يد الحكومة ولم تقع في يد هذا الثعلب، الحكومة سوف تخبئها وتتعامل معها حسب ما تقتضيه ظروف القضية، أما هذا... فكيف يمكن أن أتعامل معه؟ كم صفحة قرأ؟ هل قرأها كاملة؟ كم دقيقة استغرق صنع الشاي، هل قرأها بشكل متقطع؟ ماذا يضمر في نفسه الآن؟ يارب... أنت حسب...

قام مالك بتشغيل جهاز الحاسوب، وضع رسالة أحمد على الماسح الضوئي، وأخذ يدخلها صفحة صفحة، ثم قام بحفظها في قرصين.

كتب على الأول:

إيطاليا X ألمانيا
٢٠٠٦

وكتب على الآخر:

عندما يبكي الرجال
فريد شوقي نور الشريف

تأكد من وجود المادة كاملة على كل قرص، ووضع القرصين بين عشرات الأقراص في الخزانة، أمسك رسالة أحمد فانتزع منها الصفحة الأولى فقط، وضع الرسالة في علبة السمنة المعدنية وأحرق الرسالة كاملة، ثم جاء بالصفحة الأولى، أحرق خمسة أسطر فقط من أسفلها، أخمد النار، وضع الجزء المتبقي فوق رماد الرسالة، ثم أغلق الوعاء بإحكام، وإذا سألته الحكومة سيقول لها: هذه رسالة أحمد، تذكر بعد ذلك أن يحذف المادة تماما من جهاز الحاسوب. وبعد ذلك، مهما تحدث فارس، ومهما يكون قد قرأ فمن الممكن تكذيبه بكل سهولة.

(٣٤)

شعر مالك بشيء من الارتياح، استلقى على سريره وراح في تفكير عميق...

الحياة... الموت... أحمد... رمز... الوظيفة... أمل... خالد...

حتى لو استدعى فارس الشرطة، سأسمح لهم بتفتيش البيت، أنا لم أخطئ، ولكن الأسرار ثقيلة، لا أحتملها، لا تستطيع الجبال حملها، لا تستطيع روايات الدكتور خالد التاريخية والمجتمعية والسياسية وكل شيء فيها أن تستوعب هذه

الأسرار، لماذا لم أكن رماديا مع فارس؟ لماذا لم أناقشه شيئا فشيئا حتى أعلم ماذا قرأ وماذا لم يقرأ ؟ ما فعلته أنا معه كان حماقة، الآن سيجعل من هذه الرسالة مركز الكون وبؤرة الحياة وقضية الساعة...

راح يفكر ويفكر... قرر أن يكتب رسالة يعاتب فيها الدكتور خالد، بل قرر أن يبعث هدية إلى الدكتورة أمل مع بطاقة اعتذار ليكسب مواقفها معه، صار يشعر أن خساراته البشرية قد تجاوزت حدها... أمسك ورقة وقلما وشرع بكتابة قصيدة اعتذار إلى الدكتورة أمل:

فيا أنت...
ماذا أقولُ ودمعك جفَّ
وحزني ذبيحٌ
تئن البلادُ
وأنت انسجام التحولِ
أنت اختصار المسافة
بين الرواية والمتحدث
قولي لأعرف مصدر يافا
وترجمة الغرباء...

فكر ثم فكر... الأفضل أن يستدعي فارس ويصحح ما جرى حتى يخفف من حدة لسانه على الأقل، بل ليقول ما قرأ دون أن يبالغ أو يؤلف من عنده... أفضل شيء القراءة...

نظر حوله فوجد كتاب: الانتحار في الأدب العربي... فتذكر أحمد... أحمد... نعم، أحمد هو الذي خاطبني وبعث لي رسالة، لماذا لا أخاطبه؟ إنه أصدقهم معي، وسأكون صادقا معه في كل شيء، سأخاطبه كأنه مازال حيا، سأحل

كل هذه العقد في رسالتي إلى أحمد... نعم، أحمد هو الذي سيصغي إلي، على الأقل لن يقاطع كلامي كما أفعل ويفعل كل الناس، الوحيد الذي سيجعلني أبوح بكل شيء هو أحمد...

شعر أن اللغة تفيض عليه بأمواجها، الرغبة بالكتابة تتفجر من شرايين كيانه، تناول مجموعة من الأوراق وراح يكتب...

(٣٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ صدق الله العظيم.

الحمد لله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، الحمد لله الذي يسمع دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء...

يا أحمد...

مشيناها خطى كُتبتْ علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها هذه المرة سأكون صادقا معك منذ البداية، ومنذ البداية أحب أن أقول لك وأطمئنك بأن هذه الرسالة ليست ردا على رسالتك، إنما هي رسالة أكتبها إليك في مماتك لأنني لم أجد أحدا أشكو إليه همي وغمي، وحين أيقنت بأنك لن تقاطعني... كتبتها إليك لعلك تفهم الحياة حقيقة لا مجازا... أنت مازلت تذكر «أيونا» في رسالتك، إن حالي الآن أسوأ من حاله... هل تعرف كيف؟ لقد اتجه هو إلى الفرس ليحدثها عن ولده ويبث إليها همومه، أما أنا فلم أجد سوى اللاكائن كي أحدثه، لم أجد سوى الأموات يا أحمد... سأحاول ألا أبكي حتى أنتهي من كتابة هذه

الرسالة، لقد كتب تشيخوف بداية القصة عبارة بخط صغير تقول «لمن أشكو حزني؟»، وأنا يا أحمد... لمن أشكو حزني...؟ الدنيا يا أحمد أسوأ من الحال الذي تركتنا عليه، ويوما بعد يوم تزداد سوءا وفرارا نحو الجحيم...

لا عذر لي ولا عذر عندي إن أطلت عليك، فقد قلت في رسالتك بأنك في فسحة من الوقت... أما أنا، ففي فسحة من القهر والظلموت...

هكذا نأتي إلى الدنيا، نحاول أن نفهمها كما نشاء نحن فقط، أما أن نفهم أن هذه الأرض أرض واحدة لمليارات العقول والأنفس التي يجب أن تعصف ذاتها حتى تحاول أن تصل إلى أقرب نقطة التقاء، فهذه هي مشكلة المليارات ومشكلة المجموعة البشرية التي تمشي على هذه الأرض الآن، ننسى من كان قبلنا وأورثنا أسباب الحضارة، وننسى من سيجيء بعدنا لنورثه أسباب الحزن والدمار!

يا أحمد،

من فضة الموت الذي لا موت فيه أكتب إليك، من حبر الأحزان وقلب مثقوب، من كثرة الكاف في الكلمات، وقوة الروح عند الموت، أكتب حالة لن يعيشها سواي وسواك...

مسني الضرّ إلا قليلا، فمن فضة الموت وفضة الحزن وفضة اللانفس سأبوح لك بأشياء أنا نفسي لا أكاد أصدقها، أو بمعنى أكاد لا أكاد أصدق ما جرى، أنت تذكر رواية «السفينة» وتذكر الدكتور فالح الذي انتحر، وقد أشرت إليه في رسالتك وقلدته في موته، فلم تكن لك استقلاليتك حتى في موتك. ولكن يبدو أنك اعتمدت فقط على ما قاله الدكتور خالد ولم تقرأ الرواية، لا علينا... المهم أن لى زوجة الدكتور فالح قد رتبت أمر الرحلة على السفينة ترتيبا ماكرا وذكيا عندما علمت أن عشيقها عصام السلمان يريد أن يسافر من بيروت

إلى أوروبا بسفينة اسمها «هيركليس»، رتبت هذه الرحلة بذكاء، فوجئ صديقها عندما رآها في السفينة، واستغرب هذه الصدفة العجيبة، ولكنها أوضحت له أن الأمر ليس صدفة وإنما هو مرتب بإتقان.

الذي أريد أن أقوله: إن جبرا أراد أن يوصل إلينا شيئا مهما، الأقدار تسير ونحن نسير بنظام، لا شيء اسمه صدفة. ولكن الغريب أن جبرا يشبه الدكتور خالد، يفصل ما بين الواقع من جهة، والخيال والأدب وعالم الرواية من جهة أخرى، فعلى مدار الرواية أراد أن يقنعنا بأن الصدفة ليست موجودة في الحياة ولا في الواقع، إنما هي أيدينا التي تفعل وعقولنا التي تنظم، بعد أن تقدر الأقدار أقدارها، حسنا... انظر ماذا كتب جبرا قبل أن يبدأ رحلته الروائية على السفينة:

«الشخصيات والأسماء في هذه الرواية من خلق الخيال، فإذا وجد أي شبه بينها وبين أناس حقيقيين أو أسمائهم، فلن يكون ذلك إلا من محض الصدفة، وخاليا من كل قصد».

أرأيت هذا التناقض العجيب، منذ البداية يعلن إيمانه بالصدفة، ثم يبني رواية رائعة عجيبة يقنعنا فيها أنه لا صدفة في هذه الحياة؛ إنما هي الحياة تجتمع مع بعضها وفق أحداثها وأجزائها وتراكيبها وأنماطها! هؤلاء الكبار، أمثال جبرا والدكتور خالد، يسوغون لأنفسهم ما يشتهون، يحق لهم مالا يحق لغيرهم...

ولكن الذي يعجبني في جبرا الإهداء الذي يقول فيه: «إلى الذين لولا حبهم... لما كانت هذه السفينة» وأنا يا أحمد، أفكر أن أكتب شيئا إلى الدكتور خالد، أستاذنا الذي أحببناه عندما اصطحبنا على متن سفينته وجمعنا فيها في رحلة رائعة ستظل ذكراها محفورة في العقل والوجدان، للأسف، الدكتور خالد

لا يعطينا الفرصة لكي نحبه، ألقانا في اليم ثم حلق عاليا، وتركنا نصارع التيار وحدنا، دون أن يشعر بأننا أحببناه!

ستقول في نفسك الآن: لماذا عاد مالك إلى السفينة، ولماذا يسمعني هذا الكلام وأنا ميت؟ أنا هربت من السفينة والرواية والحياة، ومالك مازال يعيش حالة الأوهام هذه!

لا عليك يا أحمد...

أحيطك علما بأنني لم أوصل سلامك إلى الدكتور خالد، فأنا والله لم أره منذ الامتحان، عدا عن ذلك أخشى أن يسألني كيف بعث أحمد السلام، ومتى رأيته وكيف وماذا قال لك؟ وأنت أوصيت أن أحفظ الرسالة وكثيرا من الأسرار، عدا عن هذا وذاك، فأنا والله مايزال في نفسي شيء تجاه الدكتور خالد!

ولكن... أما كان من خيار أمامك غير الانتحار؟ لماذا لم تصارحني مثلا... لماذا لم تعبر عن حبك لي وأنت حي ترزق؟ لماذا لم تطرق الخزان؟ لماذا يا أحمد؟

لا شأن لي في شأن الله، ربما تكون الآن في أعلى الجنان، ويكون الله قد غفر لك هذا العمل، إنه غفور رحيم كتب على نفسه الرحمة... ولكن لماذا...؟

لنفرض مثلا - وأسأل الله ألا يكون هذا صحيحا - لنفرض أنك الآن في النار، لن تجد شربة ماء... حسنا... لنفرض أنك الآن حي وهموم الأرض كلها صبت حممها فوق رأسك وقلبك، كل هذه الحمم والبراكين الدنيوية لن تمنع عنك شربة ماء، أو أن تنام خمس ساعات تغيب عنك هذه الهموم فيها، مع بقاء الفرصة بحياة فضلى قائمة وبقاء الفرصة بالتوبة إلى الله كبيرة، إذن، الحياة فرصة للحياة وللموت أيضا، ولكن الانتحار نقمة في الحياة ونقمة في الموت، لماذا لم تهرب من الحياة إلى الحياة؟ لديك السيارة والمال، اخرج من

جلد أبيك، ولكن لا تخرج من جلدك، ابق حيا... حتى لو جاءك الموت حاول أن تهرب منه إلى الحياة، الحياة فرصة يا أحمد... فرصة لا تعوض لكي تحيا حياة أحسن منها وأفضل، على هذه الأرض مايستحق الحياة يا أحمد... عذرا إن كنت قسوت عليك، ولكن حين تعلم أسراري سيكون لك رأي آخر، ولكنك تذكرني بي وبصاحبي الذي قال مرة:

مرةً بعد موتي

بكى صاحبي ندما...

حين أيقَنَ

أني أنا الفرقةُ الناجية...!

زعمت في رسالتك بأنك بدأت تفهم الناس... حسنا... هل فهمتني... أو بمعنى أدق: هل بدأت تفهمني؟ إذا كان ذلك كذلك، هل أنت في شوق لسماع المزيد، هل استوعبت تماما أن لدي أفكارا وأسرارا، ومن أجل أن أتخلص منها كتبت إليك حبرا كاذبا على ورق كاذب؟ الصدق الوحيد هو ما يعتمل في صدري، ولا أستطيع له علاجا لأنني لا أستطيع أن أبوح لأي طبيب به...

ما رأيك أن نؤجل مسألة الأسرار والهم والغم هذه، ما رأيك أن تنسى الموت الذي أنت فيه إلى ماهو أقل سوءا، ما رأيك بالغربة يا أحمد، هل تصحبني قليلا لتدلني على قبر أبي حيان التوحيدي وأدلك أنا بدوري على رسالته في الغربة؟ حسنا، هيا بنا... نرى بعضا من غربة هذه الرسالة وغرابتها...

(سألتني رفق الله بك، وعطف على قلبك- أن أذكر لك الغريب ومحنه، وأصف لك الغربة وعجائبها، وأمر في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة، ومعان شريفة، إما معرِّضا، وإما مصرحا، وإما مبعدا وإما مقربا، فكنت على أن أجيبك إلى ذلك، ثم إني وجدت في حالي شاغلا عنك، وسائلا دونك، ومفرقا بيني وبينك، فكيف أخفض الكلام الآن وأرفع، وما الذي أقوله وأصنع، وبماذا أصبر،

وعلى ماذا أجزع؟ وعلى العلات التي وصفتها والقوارض التي سترتها أقول:

إن الغريبَ بحيثُ ما حطَّتْ ركائبُه ذليلُ
ويدُ الغريب قصيرةٌ ولسانــه أبدا كليلُ
والناس ينصر بعضُهم بعضا وناصرُه قليلُ

يا هذا! هذا وصف غريب نأى عن وطن بُني بالماء والطين، وبعد عن أُلاف له عهدهم الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأس بين الغدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحدق المراض، ثم إن كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، فأين أنت عن غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو في كن، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن. إن نطق نطق حزنان منقطعا، وإن سكت سكت حيران مرتدعا، وإن ظهر ظهر ذليلا، وإن توارى توارى عليلا، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه، وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر، وإن أمسى أمسى منتهب السر من هواتك الستر، وإن قال قال هائبا، وإن سكت سكت خائبا، قد أكله الخمول، ومصه الذبول، وحالفه النحول، لا يتمنى إلا على بعض بني جنسه، حتى يفضي إليه بكامنات نفسه، ويتعلل برؤية طلعته، ويتذكر لمشاهدته قديم لوعته، فينثر الدموع على صحن خده طالبا للراحة من كده.

وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغلغل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نودي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب، فإن كان هذا صحيحا؛ فتعال حتى نبكي على حال أحدثت هذه النفوة، وأورثت هذه الجفوة:

لعل انحدارَ الدمع يُعقِبُ راحةً   من الوجد أو يَشفي نَجيَّ البلابلِ

الغريب من إذا دعا لم يُجَب، وإذا هاب لم يُهَب، الغريب من إذا استوحَش استوحِش منه؛ استوحَش لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقا، واستوحِش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل محرقا، الغريب من فجعته محكمة، ولوعته مضرمة، الغريب من لبسته خرقه، وأكلته سلقة، وهجعته خفقة.

دع هذا كله! الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه.

يا هذا! أنت الغريب في معناك.

ما أسعد من كان في صدره وديعة الله بالإيمان، فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد! أتدري ما هذه الوديعة؟ هي والله وديعة رفيعة، هي التي سبقت لك منه، وأنت بدد في التراب، لم تجمعك بعد الصورة، ولم يقع عليك اسم، ولم تعرف لك عين، ولم يدل عليك خبر، ولا يحويك مكان، ولم يصفك عيان، ولم يحطك بيان، ولم يأت عليك أوان، أنت في ملكوت غيب الله ثابت في علم الله، عطل من كل شيء إلا من مشيئة الله، ترشح لمعرفته، وتلحظ في صفوته، وتؤهل لدعوته، فما أسعدك أيها العبد! فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذي نظر لك قبل أن تنظر لنفسك، وأيدك بما لم تهتد إليه همتك، حتى إذا نشر مطويك، ورتق مفتقك، وجمع مفترقك، وقوم منأدك، وسوى معوجك، وفتح عينك، وطرح شعاعها على ملكوته التي جعلها قبالة بصرك، وعرفك نفسك ودعاك باسمك، وشهدك بحكمته فيك، وأظهر قدرته عليك، وعجبك وعجب غيرك منك، ولاطف ولطف لك، وبين لك مكانتك إذا أطعت، ومهانتك إذا عصيت، وثبت على شهواتك فتناولتها، وعلى لذاتك فانهمكت فيها، وعلى معاصيك (لمن

هذا حديثه معك) ولما قيل لك اتق الله! أخذتك العزة بالإثم، وبؤت فيما فيك من نعم الله عليك، تهر على ناصحك، وتهزأ بالمشفق عليك، وتحاجه بالجهالة، وتقابله بالكبرياء، والمخيلة...

يا هذا، أحجر أنت؟ فما أقسى قلبك! وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك! أبينك وبين نفسك ترة أو كيدة؟ هل يفعل الإنسان العاقل بعدوه ما تفعله أنت بروحك؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافيا، ولا ينجح فيك نصح وإن كان كافيا! اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك.

يا ذا الجلال والإكرام).

نعم يا أحمد،

أنت الغريب في معناك...!

تخيل يا أحمد رسالة الغربة في رسالتي إليك! كيف رأيت أبا حيان؟ يبدو أنك كنت أكثر إعجابا به، كنت تنظر إلى عينيه، تسبر أغوارهما وتروح عميقا فيهما، أما أنا... فقد كنت أمعن النظر في خطوط جبهته وصحراء وجهه القاحلة، يبدو أنه ميت مع الغرباء، كفنه أبيض ممزوج بالفقر والجوع، ولكنه كان مبتسما، هل تعرف لماذا؟ لأنه لم ينتحر، لنفرض أنه أحرق كتبه ونحرها، لكنه لم ينتحر، هل تفهم؟ لم ينتحر، عاش عيشة كلها فقر وحرمان وظلم ولكنه لم ينتحر، افهم جيدا يا أحمد... لم ينتحر... الدكتور خالد يرى أن إحراقه كتبه انتحار فلسفي، كان عليه أن يقول بأنه انتحار فكري، وليس فلسفيا، دعنا من هذا الكلام، ومن الدكتور خالد، وتذكر ما قاله أبوحيان لك:

(أنت الغريب في معناك...) كان ينظر إليك أنت، كان يقصدك أنت يا أحمد وعندما قال: (وإن أمسى أمسى منتهَبَ السر من هواتك الستر...) جحظت عيناه بوجهي، كان يعنيني أنا، ولكني حفظت سرك.

هل رأيت حُبيبات التراب الطرية المبتلة على أجفانه، هل رأيت غبار الزمان على وجهه؟ هل رأيت الطين في تجاعيد وجهه؟ أنا رأيت كل هذا وذاك، ولكن لم يكن ثمة دود، هل تفهم؟ لم يكن ثمة دود؛ لأن أبا حيان ليس عدميا، لماذا تظن السوء والعدم وربك الغفور ذو الرحمة؟

جميل عالم المقابر يا أحمد، صحيح أن نوره خفيف، ولكنه نور ليس مفتعلا، هكذا جعله الله، لقد شعرت بشيء من الحزن، وشيء من السعادة، الأموات يحبون بعضهم، لا حقد ولا ضغينة ولا ظلم، أهل النار يتوسلون إلى أهل الجنة، وأهل الجنة مشفقون من حال أهل النار، الماء المتساقط من سقف الأرض الآتي من العالم العلوي بارد وصاف، ولكنك لم تسمح لي أن أشرب، قبضة يدك القوية على يدي جعلتني أرتعد خوفا، خفت أن أموت داخل الموت، التراب الذي تجمعونه على جوانب الطرقات ذو لون غريب، يذكرني بصفحات رسالة الغفران القديمة، حجراتكم خالية، ولكنها مدهشة، مقاعد أهل الجنة أكثر ثباتا في الأرض، الذين كانوا يحفرون في الأرض، شعرت بأنهم ميتون منذ الألف السابع ق.م، أرأيت:

حفروا في الأرض

وجدوا رجلا يحفر في الأرض

لماذا لم تجبني يا أحمد عن ذاك الرجل الذي كان يحاول جاهدا، إخراج امرأة خائفة من حجرة زرقاء، ولكنه لم يستطع، كم مضى عليهما والباب ينغلق كلما أوشكت تخرج، لماذا رفضت اصطحابي إلى عالم الشهداء؟! لماذا مسحت عن أحد الأبواب بعض الدماء؟! لماذا كنت تغمض عينيك كلما رأيت حجرة بابها أصفر؟ من الذي كان ينادي:

يامالك ليقضِ علينا ربك...

كم خفت يا أحمد! ظننته يناديني، فحاولت الهروب حتى جحظتني عيناك... عندما صعدنا درجات الرؤيا، شعرت بانقلاب كبير في عالم الموت والموتى واهتزاز في الأرض... عندها:

لم تنفتقِ الأرضُ سوى عني

عندها أيضا...

كدت أَعْلَقُ في الحَيَمُوْت...

كيف عرفت الطريق إلى أبي حيان، لو كنت مستعدا لزيارتك، لأحضرت لك شيئا من الحنوط وحاجات الموتى وكفنا جديدا... ولكنت أعددت آلاف الأسئلة عن عالم الحقيقة والرحمة هذا، الغريب يا أحمد أن الأحافير والمستحاثات التي رأيتها عندكم، تختلف عن هذه التي يدرسها علماء الأنثروبولوجيا، الغرفة السوداء الوحيدة هي الغرفة التي خرجت منها أنت للقائي، لقد خشيت أن تصحبني إليها، إنها غرفة المنتحرين، سوداء شديدة السواد ومخيفة، لكنني والحمد لله، لست عدميا، كم فرحت حين ابتسم أبو حيان عندما ودعني، شعرت أن في نفسه شيئا يريد أن يقوله لي، ولا يريدك أن تسمعه، يبدو أن لديه أسرارا هو الآخر، فهل هيأت أنت نفسك لسماع الأسرار كما هيأت أنا نفسي للتهرب منها ومن وجهك ثانية؟ عمن أحدثك الآن عن أبي العلاء، أم عن الدكتور خالد؟

كلا يا أحمد، أنا لا أفعل هذا لكي يزداد شوقك أو أجعلك ترجوني لأخبرك عن أسراري، ولكن الأمر وما فيه هو أن هذه الأسرار تجعل الجبال كالعهن المنفوش، أخشى أن تتحرك زلازل قبرك فتخرج للناس على غير هدى...

الناس يا أحمد... الناس...! أنت تقول إنك بدأت تفهم الناس، ولكن في الوقت الضائع، أنت لم تفهم أحدا، حتى لم تفهم نفسك، ولا أدري إن كنت ستفهم نفسك عندما أبوح لك بالأسرار!

اسمعني جيدا حتى النهاية... الورق يرتجف، والحبر يرتجف على الورق والقلم يرتجف في يدي، ويدي ترتجف وقلبي يرتجف ومنذ سبع أرتجف، يا أحمد العدمي، أنا لست مستعدا، ولكني سأبوح، فهل أنت مستعد؟ أمسك عظامك وأحجار قبرك حتى لا تهدودر فوقك، أمسك موتك لا تخسرَهُ فتصيرَ بلا موتٍ أيضا، احتفظ بالنفس الأخير الذي التقطته في الحياة الدنيا لا يخرج من رئتيك، احتفظ بهدوئك... هذي النفس الأمارة بالموت... أَرِحْ ضجعتَها... أنا الآن على وشك البكاء... على وشك الانهيار... على وشك اللحاق بك...!

أنا خائف من البوح حتى على الورق، ولكن يجب أن أرتاح، أنا كالذي يمزقون جلده في الصحراء دون تخدير ليزيلوا شوكة دخلت في حنجرته، ألم شديد، دم نازف ولا يستطيع الصراخ، ولكنه بعد انتشال الشوكة سيرتاح... سأرتاح يا أحمد، سأرتاح فاستمع...

يا أحمد...!

أنا الذي...!

أنا الذي...!

أنا الذي كنت مع رمز...!!!

هل تسمعني...

نعم... أنا

كارثة... أليس كذلك...

لا... ليست كارثة... فما خفي كان أعظم...!! استمع جيدا... هذه أول حجة لدي لأثبت لك أنك لم تفهم أحدا... حتى نفسك...!

أحمد... أحمد... هل تسمعني...! أين غبت يا أحمد... أين أنت؟ استمع إلي كما استمعت إلى رسالتك، احتملني كما احتملت فظاظتك ونحن نزور أبا حيان، إذا كنت لا تريد أن تسمعني، فأنا سأبوح لنفسي فقط... نعم سأعترف بكل شيء لي أنا على ورقي وطاولتي، وفي غرفتي، اذهب أنت، فأنت عدمي جبان، ولكني سأظل أخاطبك بضمير المخاطب كأنك موجود! مصيبة إذا لم يجد الإنسان من يستمع إليه من الأحياء، فما بالك إن لم يجد ميتا يستمع إليه؟ ستظل موجودا حتى نهاية الرسالة، بطيفك أو بخيالك... حتى بضمير خطابك ستظل موجودا أيها العدمي، أعطيك الفرصة الأخيرة كي تطرق جدران القبر، هيا انتفض اخرج... حاورني... دافع عن نفسك... اقتلني لا تكن جبانا... لا تكن جبانا... اخرج واقتلني... فأنا الآن أضعف منك... خذ بيدي... فأنا أعمى... أعمى ورهين محابس... خذ بيدي يا حجر العثرات...

نعم يا أحمد... رمز كانت تخونك معي، بعد أن عرفتنا إلى بعض قبيل أن تبدأ إحدى محاضرات الدكتور خالد، رأتني رمز بعد يومين في المكتبة، لقد أحسنت اصطيادي، لقد وجدتُ أنا إنسانا يحب ما أحبه من الأشعار، كنا حد التطابق، كان الشعر كارثة الجمع بيننا، كنت أختار لها أجمل الأشعار، وكانت تقول لك بأنها صارت تتقن فن الاختيار... كذابة يا أحمد، والله كذابة، أقول لك شيئا؟ مرة عندما كنت ألتقيها في مقهى «سفينة العشاق»، وأنا الذي اخترت هذا المكان لأني كنت في ما مضى أحب «السفينة» قلت لها: ما أخبار جواد القواد؟ فضحكت كثيرا وأعجبتها العبارة وظلت ترددها إلى أن قالتهاعلى

مسمعك! ماذا تريد أيضا؟ أنت تريد المزيد ولدينا الكثير... الكثير الكثير يا أحمد...

حتى الرسائل، رسائل الهاتف النقال، تلك التي كانت تذيبك حبا وشوقا، أنا الذي كنت أكتبها وأرسلها بيدي! خذ هذه مثلا: القميص الذي أعجبك... لقد سألت رمز: من أين أتى أحمد بهذا القميص الجميل؟ فعلمت أنكما اشتريتماه معا. فاشترينا معا قميصا مثله تماما، ومن نفس المكان، وعلى حسابك أنت! ، وأنت اليوم تنتحر به، وأنا أعيش به!

أنت تفهم الناس؟ إذن... تعال معي وانظر،

قالت لك هي وأهلها بأن أباها ميت، حزن لما أصابه بعد خروجه من الكويت في حرب الخليج، ثم أصيب بجلطة ومات...

حسنا... أنت تقول بأنك بدأت تفهم الناس... والد رمز يا أحمد لا زال حيا يرزق... نعم كما أقول لك، وكما قالت لي وكما عرفتني إليه أيضا... فوالدها كان يعمل محاسبا في الكويت، ومن خلال عمله عرف بعض الأسرار، صار يعمل لحسابه، ولكن من جيبه الخاص وبالحلال، كثرت أمواله، جاءت حرب الخليج وانتهى كل شيء، عاد أبوها يعمل معلما في هذا البلد، وفي أحد امتحانات الثانوية العامة؛ وهو يراقب على امتحان إحدى المدارس الثانوية للبنات، لفتت نظره طالبة جميلة جدا، وأنا رأيتها، غمزته وضحكت له، فسمح لها بالغش، أحبها وأوهمها أن مهنة التدريس بالنسبة له ماهي إلا تسلية، وأنه يمتلك البواخر وأبناؤه هم الذين يديرون أعماله، تزوجها وكان مؤجل مهرها خمسين ألفا. رفضت والدة رمز استقباله في بيتها الذي اشترته من توفيرها الخاص وعملها في الكويت، ما تزال على ذمته، وهو على ذمة تلك الفتاة المخدوعة، ما أضعف

من تماسك هذه الأسرة، فصارت رمز حرة طليقة بلارقيب أو حسيب، وأنت وأبوك كل منشغل بنفسه وأولوياته؛ فلم تسألوا جيدا عن رمز وأهلها وانطوت عليكم الحيلة... رمز... لا أدري ماذا جرى لها بعدك، لم تعد تتصل!

يا أحمد، لو كنت مستمعا جيدا إلى الدكتور خالد لعرفت كيف تحلل الشخصيات وتفهم الناس جيدا، بعيدا عن طريقتك الساذجة في فهم الناس في الوقت الضائع!

عذرا يا أحمد، فما خفي كان أعظم، سأستمر... سوف أبوح بكل شيء، فما قلته حتى الآن ماهو إلا من سقط المتاع كما يقولون.

يا أحمد، اللباس الذي كانت تلبسه رمز، وهو من مالك الخاص ومن مال أبيك، وهو من فضل الله أولا وأخيرا... هذا اللباس كانت تلبسه لي، وإن أنا تركت لك شيئا منه لتستمتع بالنظر إليه؛ فهذا لأنني مللت النظر إليه، كانت تقول لي: ماذا ألبس لك في المرة القادمة؟ فهل كانت تقول لك ذلك؟

كانت فنانة في الرقص والغناء والجنس، هي التي بدأت كل القذارات، كانت متزنة في أول يومين من تعارفنا، بدأت ترمي نكاتا فيها بعض التلميحات، ثم بدأت بسؤال صاخب أحرق أعصابي، ونقل الاحتباس الحراري الذي يهدد الكرة الأرضية بالفناء إلى خلاياي، وجعله محتبسا بين لحمي وعظامي... قالت لي: هل أسأل سؤالا وسخا...؟ لن أقول لك ما هو السؤال، إنه سؤال تعجز الإنس والجن عن الإتيان به، ولا يليق أن يُذكر في رسالة إلى منتحر.

ثم بدأت الحكاية، من أول يوم وقعنا في الخطيئة، وكنا كلانا حذرين تماما في كل مرة، ضاقت بي الدنيا ولم تتسع، كيف سأنظر إليك في المحاضرة؟ لقد ارتحت أنا قليلا عندما تغيبت أنت في اليوم الأول الذي أخطأت أنا فيه مع رمز،

أنت تغيبت لأنك كنت معها، كانت ترفض لقاءك صباحا لتلتقي بي، إذ كنت أتغيب عن عملي من أجلها، وكنت أرفض أن ألتقيها على حساب محاضراتي، فكانت هي تلتقيك على حساب محاضراتك. أقول لك شيئا ولا تغضب ؟!

أنا الذي أصررت على رمز أن تمنعك القبلة، والدتها نصحتها بذلك أولا لتظهر تربيتها اللائقة أمامك، أما أنا، فلأن رمز فتاة شبقة لا تمسك نفسها، كنت أريد للعلاقة بينكما أن تتم، كان يجب أن تظهر رمز أمامك مترفعة لا تمس حتى تتمسك بها أكثر، وحتى لا تقعا في خطأ كبير يفسد كل أفكاري ويعطل كل أحلامي.

كانت تقول لي: «ضع دائرة حول رمز....» فأضمها...!

هذا هو مالك يا أحمد... أستاذك الكبير «مالك»!

هل تسمي هذا كله صدفة؟ دعنا نتابع...

استمرت السفينة سائرة، وكثرت اللقاءات في «سفينة العشاق» ليلا نهارا، ولا أخفيك يا أحمد، والكلام يبقى بيننا، كانت دائما هي التي تدفع الحساب، تخيل... عندما أحضرت هي كبدة الغنم إلى بيت أبيها وزوجته الصغيرة، تخيل أن إخوتها الصغار من أبيها سألوا أمهم: ما هذا...؟ كانت هي المرة الأولى التي يرون أو يسمعون بشيء اسمه «الكبدة»! وعندما أخبرتني بذلك قالت لي بابتسامة حزينة: إنما أولادنا أكبادنا! أموالك أو أموال أبيك كانت تصب في جيبي وجيبها وجيب والدها ووالدتها.

عندما توطدت علاقتنا تماما اتفقنا على الآتي:

- أن تبعثا لي ببطاقة الدعوة لحفل الزفاف.
- أن أحضر الحفلة وأحضر هدية قيمة، تشتريها رمز من مالكم طبعا...

- أن أحاول التقرب من والدك، والظهور أمامه بمظهر الفاهم العارف الذي يجيد التحدث بلغة رجال الأعمال.

- أن أوطد علاقتي بك شيئا فشيئا دون أن تشعر بأي مبالغة في الموضوع، وكانت رمز تتحدث لك عني لا من أجل الشعر؛ لكن من أجل أن تتقرب مني أنت أيضا، ولكن هذا الأمر لطبيعة ظروفي وظروفك لم نقم كلانا به تماما.

- أن تسعى رمز من خلالك أنت أيضا بإقناع شقيقتك نجوى بقبول الزواج مني.

- أن تسعى رمز وأنت ونجوى بإقناع والدك ليضعني في مكان محترم في شركته.

هل هذا كله صدفة يا أحمد؟ أم أن أجزاء السفينة وقطعها تجمع ذاتها بذاتها؟

أخذت مع رمز نعد العدة، هي تنجح وتتخرج حتى يتم زواجكما وتتسلم العمل في الشركة. وبما أن والدك لا يؤمن بأنصاف الحلول فإنني سأحرق نفسي في سبيل المحافظة على الامتياز، لأنكم أنت ورمز ونجوى حين تقدمونني له سيكون الامتياز أول شعار ترفعونه أمامه.

لم ينته الأمر بعد يا أحمد، فما خفي كان أعظم...

بدأنا نسير نحو تحقيق النجاح لها والامتياز لي، لا أخفيك سرا، الامتياز كان هدفا لي منذ البداية، ولكن بعد معرفة رمز صار حلما لا بد أن يتحقق...

دعنا الآن من موضوع النجاح والامتياز، ولنأت إلى موضوع الدكتور جواد، فقبل أن تذهب أنت مع رمز إلى منزل الدكتور جواد وتحدث الكارثة التي حدثت، كنت طلبت منها أن تتنازل بعض الشيء للدكتور جواد، فرسمت لها الخطة، كنت أتدخل في كل شيء إلا في ملابسها، فقد كانت أستاذة -كما تعلم- في هذا الفن، ذهبت إليه في المحاضرة الأخيرة وكان قد اعتذر عن إعطاء المحاضرة.

رسمت لها خطة الامتحان، فكان يجب أن تصطاده في الامتحان، صار نجاح رمز مقترنا بنجاحي، كان زواجك منها مقترنا بوظيفتي... بالمناسبة كانت رمز تشمئز من وجه الدكتور جواد وعينيه الغائرتين، وشفتيه الزرقاوين، وجلده الأحمر المتجعد من كثرة الشرب، كان إذا جلس ونظر في الكتاب برزت عظام الترقوة والكتفين من نحالته، ولذلك أطلقت عليه رمز لقب «أحدب نوتردام» ولهذا لم تمكنه من نفسها. في الواقع كانت تشتهي الدكتور خالد لأنه وسيم، وشخصيته قوية، وقد صارحتني بأنها سألتك عن علاقة الدكتور خالد بالبنات عندما رأته أول مرة، ولأنك لا تفهم الناس مطلقا، فقد كانت تريد من وراء سؤالها التقرب من الدكتور خالد، طلبت مني مرة أن أسهل الطريق لها معه... القوادة بنت القوادة، لم تكن تحترم وجودي معها، ولا حتى غيابك عنها! القذرة... تريد أن تخونني مع أستاذي...! ولكن هل تظن يا أحمد أن رمز التي تقوى على غواية الإنس والجن، تستطيع غواية الدكتور خالد، قائد السفينة، وقاهر الطاغوت، ومارد البحار؟! لاشك أنها ستكون لحظة مصيرية في هذا الكون: الرجل ذو القبضة الفولاذية أمام بُحيرة من الفتنة، بل قل أمام قارة من الثلج الدافئ...! لست أدري ولكن الرهان على سقوط الدكتور خالد حتى مع أستاذة السحر وأوروبا الخيال، أمر أقرب إلى الخسارة منه إلى الربح، ليس من السهل أن تراهن على سقوط الجبابرة، قارات العالم كلها لا تقوى على تحريك ساكن في هذا الجبروت... ليس من السهل أن يستبدل الربان الماهر سفينة بشرية بعروس السفائن التي تجوب البحار والروايات والأحزان والشواطئ والأشواق والحنين...

المهم... لم يحضر الدكتور جواد إلى الامتحان، بدأت أبحث عنه، وأتتبع أخباره حتى عرفت بيته، وعرفت سر اختفائه، فقلت لرمز: آخر فرصة قبل أن يموت الرجل، يجب أن يأتي أحمد معك، اتفقنا على أن نشاغل البيت ونقوم بتفريغه من أهله، فاتصلت أنا ببيت الدكتور جواد فردت ابنته، لم يكن في البيت سوى الثلاثة، الدكتور والزوجة وابنته سعاد، كان له ولد قد توفي مخمورا بحادث سير، وولد يدرس في أمريكا، في الجامعة التي تخرج فيها الدكتور جواد نفسه، قلت لسعاد يجب أن تحضري لاستلام الأدوية الخاصة بأبيك، لقد بعثها الطبيب الخاص بأبيك معي، وسوف أكون في الساعة الثامنة صباحا من يوم الجمعة في المكان الفلاني، واخترت مكانا بعيدا عن بيتها، حاولت سعاد تقريب الموعد إلى الخميس، فقلت لها: الخميس سأكون في العاصمة، نجحت الخطة وجاءت سعاد، وحاولت إشغالها بالحديث عن والدها والأدوية، وما قاله الطبيب الخاص به عنه. وكان على رمز أن تشاغل زوجة الدكتور جواد الموجودة في البيت، أو تطلب منها أن تبقى رمز وأحمد وحدهما مع الدكتور جواد، بالنهاية نجحت الخطة تماما. وكان ما كان يا أحمد، كان هذا كله من تخطيطي وكيدي ومكري، ولكني لم أطلب منها أن تتعرض للدكتور جواد بجسدها .كان لي عدة أهداف من هذا العمل، أن أنتقم من الدكتور جواد لأنه لم ينجح رمز، وهذا أهون الأسباب. أما السبب الأهم؛ فبعد أن قرر والدك أن يطلق منك رمز، أو يطلقك منها، كان لا بد من وضعك أنت ووالدك تحت الأمر الواقع، قلت لرمز: يجب أن تمارسي الجنس مع أحمد، كوني حريصة على فض البكارة، يجب أن يفض بكارتك لتجبري أحمد على الزواج منك، وتضعي والده في خانة اليَك... لو أنها نجحت في دراستها مثلما نجحت في هذه اللعبة القذرة، وبالفعل نجحت في

اصطيادك، وأخبرتني مباشرة، فقلت لها كرري العملية مع أحمد... فاستغربت هي ذلك، فقلت لها: إذا كان هناك حمل عندك فإن والده سيرضخ أكثر خشية الفضيحة، وربما يرق قلبه على الجنين لأنه سيصير له حفيد يقول له يا جدي! وسوف يسرع أمور الزواج.

كررت رمز ممارسة الجنس معك في اليوم التالي مباشرة، حتى أتيت أنت وأفسدت كل شيء بهذا الانتحار البغيض! أنت خسرت وأنا وأبوك وأهلك ورامز وأمه وأبوه وأبناء أبيه خسروا الكبدة، وأمهم المسكينة ورمز خسرت كل شيء... كلنا خاسرون... خاسرون... ومن مغرم مثقلون...

أنا لا أبكي، ولكن ما بصدري يملأ الأرض حزنا... مرض الدكتور جواد، وإخفاق رمز وانتحارك، هل هذا كله صدفة؟ دنيا من الأسئلة الخُلَّبية التي يمكن أن تصنع ملحمة كبرى من قصتي معك يا أحمد!

انظر ماذا فعل الفقر بي وماذا فعل برمز، ثم انظر ماذا فعل الغنى بك وبأبيك وعائلتك، الذنب ليس ذنب الفقر، ولا ذنب الغنى؛ الذنب ذنبنا نحن البشر، إذا قسم الله لي لقمة حلالا فإنني أحارب البشرية من أجل لقمة ثانية، ولو كانت حراما.

يا أحمد...

لو حاورتْك الضَّأنُ قال حَصيفُها الذئبُ يظلمُ وابنُ آدمَ أظلمُ

الذئب يظلم حين يجوع فقط، ثم يخلد إلى النوم، وابن آدم يظلم حين يجوع وحين يشبع، والويل ثم الويل إذا شبع ابن آدم... انظر إلى أبيك... انظر إليه... ذئب... ذئبان... ثلاثة... جارح... ذو مخلب وناب... انظر إليه... انظر إليك الآن... فريسة اجتمعت عليها الذئاب والأنياب، كان عليك

أن تقاوم وتقاوم لماذا انتحرت يا أحمد ودمرت الكثيرين وراءك؟ لماذا دمرت ذاتك وانهزمت...؟

أنت لا تغضب إذا قلت لك «أحمد النائم» لأنك تحبني، حسنا، ماذا ستسميني الآن؟ وهل لي أن أغضب إذا سميتني بأقبح الأسماء...؟

يا أحمد... هل فهمت الناس الآن...؟ هل اكتملت قطع السفينة وأجزاء الحياة...؟ هل سيأتي التاريخ بأسوأ مني... فيما تبقى له من تاريخ...؟

الحياة تسير... هذه القبور قطع جاهزة لإكمال دورة الحياة...

تقولُ أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه لقبرِ ثوى بين اللِوى فالدَّكادكِ
فقلتُ لها إن الأسى يبعثُ البُكا دعوني؛ فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

عندما يموت جميع الناس تكتمل أجزاء الحياة تماما ليبعث الله الناس... ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾.

يا أحمد... أنا منذ وفاتك وأنا أقرأ القرآن بين الحين والآخر، كم كنت أتمنى قبل وفاتك أن تكون قرأت قوله تعالى: ﴿ إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾.

ما أحوجنا يا أحمد إلى قراءة نهايات سورة النمل وتدبر معانيها لنفهم لماذا أتينا...

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين(٩٢) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون(٩٣) ﴾.

نعم يا أحمد، إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، عبادة وعمل، عمل وعبادة، إن الله ليس بغافل عن أعمالنا وليس بغافل عنا؛ فلماذا غفلت أنت عنه؟! مهما يكن، فالحياة يمكن أن تكون يوما ما صافية جميلة فاشرب صفاءَها، وانهل من معينها العذب الفرات...

اشرب قبل لا يحوس الطين صافيها

أحمد، هل لك أن تستمع إلى هذه المفارقة العجيبة؟ عندما كنت أخطط مع رمز للوصول إلى كل شيء عندكم: نجوى والشركة والمال، كنت أقول لها بأنني سأقول لوالد أحمد:

- يا عمي أنا أكبر من الحكومات ومشاريعها، الحكومات تنظر إلى الخطة الخمسية، أما أنا فلا أقتنع بالنجاح إلا إذا كان منبثقا عن خطة أبدية، وانظر ماذا جرى يا أحمد جراء تخطيطي الأبدي... فشل وحزن ودمار أبدي للجميع.

هل أحزنتك اعترافاتي؟ يا أحمد، أجبني هذه المرة، أجب عن سؤالي هذا: بعد هذا الذي سمعته مني، أريد أن أذهب لخطبة شقيقتك نجوى، حسنا... هل أتقدم إليها بوجه البراءة والنقاء وأقول لأبيك ونجوى: بعثني أحمد... أم أذهب بوجه الخيانة وأقول: بعثتني رمز؟ مفارقة جميلة هذه المرة، أليس كذلك؟

سئمت وتعبت، ولكني لن أنتحر، هل تفهم لن أنتحر، الحياة هدية الله وهبته إلينا، فلا ترد الهبة والوديعة حتى يستردها صاحبها، هل تسمعني يا أحمد! هل أتركك الآن؟ هل ستزورني يوما؟ هل ستحكي لي عن نجوى، وعن والدتك،

بلّ الله تربتها؟ السفينة بانتظارك يا أحمد، ولكن هذه المرة لن أسمح لك أن ترفع راية الاستسلام، ارفع راية الكوليرا، وارفع راية الحياة، وراية الحب هي البوصلة التي ستظل تحدد مسار السفينة، لا يأس فيها ولا صدفة... الأقدار مقدرة، مَن آمن بها حاز صندوق القناعة وكنزها، ومن جحدتها نفسه ظلما وعلوّا، فإن الله قدّر لهذا الجحود مصائره وأقداره أيضا.

إذا طلبت منك أن تسامحني، أيكون لي ذلك؟ هل أتعبتك معي؟ هل أتركك تستريح؟ أصدقك القول: لولا الحياة لكنت معك الآن، لولا الحياة تريدني لظللت أكتب لك حتى الصباح، بل قل: حتى الأبد...

يوما ما... سأوصل سلامك إلى الدكتور خالد، ذلك الذي أحببته فأجزل لي عطاءه المجذوذ...

يوما ما... ستجمعنا الأقدار...

يوما ما... سوف تخضلُّ الحديقة، وتستنشق الأزهارُ الحياة...

يوما ما... ستعرف كل زهرة تربتها، وكل غيمة زهرتها...

يوما ما... ستعرف السفينة أبناءها... يوما ما... يوما ما...!

هذه رسالتي إليك... من تعب... ومن فضه الموت الذي لا موت فيه... إن نسيت شيئا؛ فذلك لأنني إنسان من النسيان، يبحر في سفينة الأحزان، كل من عليها فان...

الوداع يا أحمد... أنزل الله عليك شآبيب رحمته، وسقى تربتك بما هو أصفى، وزين قبرك بما كان أبهى، وعطره بريحان سورة الرحمن.

إن كنت سارعت إليه بالفقر... فقد سبق إليك بالغنى

وإن كنت سارعت إليه بالحاجة... فقد سبق إليك بالعطاء

وإن كنت سارعت إليه بالمعصية... فقد سبق إليك بالمغفرة

سُبّوحُ قدّوسُ مالك الملك ذو الجلال والإكرام، له الأمر من قبل ومن بعد هو أهل التقوى وأهل المغفرة...

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين ﴾ صدق الله العظيم.

مالك

٢٠٠٧/ ٧/ ٢

(٣٦)

أنهى رسالته واستراح... سكت عن الكلام المباح واستراح... راح في نوم عميق وراح... لم ينم هذا النوم منذ زمن طويل... منذ ألف ليلة وليلة وهو يبحث عن هذا النوم الذي لا أسرار فيه ولا ظلام... نام ساعات طوال، نام حتى اليوم التالي، نام حتى عاد الهاتف إلى عادته... صحا كما يصحو العاشق من فرحته... حمل الهاتف، لقد كان فارس، ولكنه لم يرد... نهض، وأخذ يعد الطعام... فمنذ زمن لم يتناول طعاما طيبا، راح يدندن ويغني... ظل إلى ما بعد الظهر، أخذت حياته تصفو وتصفو... حتى قرع جرس البيت.

رجل لا يظهر عليه العمر، وفتاة في الهوى من عمرها!

- والله ما سمعته عنك من ولدي المرحوم أحمد جعلني مهتما بزيارتك

(اضطرب مالك من جديد وذهبت عن وجهه علامات الراحة)

والله يا ولدي أنا يهمني أن أرضي ربي أولا وأن أعمل بوصية المرحوم.

- عمي كيف عرفت البيت ؟

- وكنت أعرف أنك موجود فيه الآن أيضا، لا عليك هذه ليست صعبة...

تذكر مالك رسالته التي كتبها أمس إلى أحمد، والموجودة على الطاولة والقريبة من متناول والد أحمد، نهض وتناولها واستأذن لعمل الشاي، وراح يفكر في أمر الرسالة، ماذا يفعل بها، أراد أن يحرقها، ولكن ليس من الملائم أن ينتشر الدخان في وجه الضيوف... انتبه لوعاء البيض المسلوق على الموقد، أخرج البيض ووضع الرسالة في الماء الساخن، فسال الحبر السائل، رن الهاتف فقال في نفسه والفرحة تملؤه لتخلصه من الرسالة بسهولة: الدكتورة أمل، أكيد الدكتورة أمل، سوف أسألها الآن: الرسالة من البيضة أم البيضة من الرسالة...

لكنه كان فارس، ترك مالك الهاتف يرن وقدم الشاي للرجل وابنته.

- نحن يا ابني لا نريد سوى الحياة الكريمة لابنتنا نجوى، وقد أتيناك بأرجلنا، ومن المؤكد أنك ستعمل بوصية المرحوم.

- ولكن... أنا ياعمي لست مستعدا للزواج

- لا تفكر بالمال.

- أنا ياعمي... أنا مرتبط... سأخطب بعد فترة

- يا ابني أنت تقول إنك غير مستعد!

- الفتاة التي سأخطبها فقيرة وترضى بالقليل...

- أنا أدفع لها ما تطلبه هي مقابل أن ترى شخصا غيرك، لدي موظفون كثيرون، تأتي وتختار، ثم إن المعلومات الأكيدة التي لدي تثبت أنك لا مرتبط ولا مربوط، لا تجعلني أغضب منك منذ البداية...

- ؟... !... ؟

- لا تهتم يا مالك... عندما تمضي ثلاثة أشهر على وفاة المرحوم ستتم إن شاء الله جميع...

(رن هاتف مالك، وكان قد تملكه شعور بالغضب والحزن والحيرة... فارس على الهاتف ومالك لا يرد)

- أنا يا عمي لدي مشاريع...

- المشاريع لدينا نحن... أنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا- أنا أقل سفينة تصلني تحمل لي ما لا يقل عن خمسين ألف دينار من الأرباح، أنتم أصحاب العلم والشهادات لا مشاريع لديكم، شركتي ترحب بك أجمل ترحيب.

- أنا يا عمي مرتاح في وظيفتي.

- يا ابني الوظيفة للفقراء الذين يخدمون الحكومة بالسخرة، أنت لن تكون موظفا في الشركة، الشركة ستكو...

رن الهاتف ولكن هذه المرة صوت رسالة هاتفية استأذن مالك منقبضا، فتح الهاتف، الرسالة من فارس يقول فيها: «صحيح اللي استحوا ماتوا».

رددها مالك في نفسه بحزن وقال: بدلا من أن أذهب إليه طالبا يد ابنته، يأتي هو وابنته ليطلبا يدي! مفارقة اليوم ليست عجيبة، لم تعد هناك عجائب، ولكنها ثقيلة، شعر بدوار شديد، شعر بالاشمئزاز، الشعور بالراحة أمر لا يطول.

- يا ابني يا مالك... هات رسالة المرحوم التي بعثها إليك، أريد أن أطلع عليها... أين الرسالة؟

- في البيض...

- نعم!

- نعم عمي... آسف... الرسالة احترقت.

- كيف؟

- أنا أحرقتها

- لماذا؟

- كنت أقرؤها دائما، وأبكي كثيرا، وأتذكر المرحوم، فقلت في نفسي: أحرقها أفضل.

- حتى ولو... يجب أن...

(هاتف جديد يرن)

- عذرا عمي أنا أشغالي كثيرة.

ذهب ليرد على الهاتف ووالد أحمد يقول: أشغال الفقراء... والله آخر زمن.

- أهلا دكتورة أمل...

- يا مالك أنا لا أمل ولا غيرها... أنا رمز

- رمز!

- رمز، نعم رمز، والله مصيبة يا مالك...

- اسمعي، أنا عندي ضيوف، سأتصل بك بعد خروجهم

- يا مالك الأمر لا يحتمل التأجيل.

- ماذا جرى ثانية؟

- تعال إلى الجامعة

- الجامعة... الجامعة... الله أكبر، ألا يوجد غير هذا الجحيم؟

- أين نلتقي إذن... والله الموضوع خطير.. أرجوك...

- في أي مكان غير الجامعة، هل تفهمين؟

- في كوفي شوب «سفينة العشاق»

- السفينة... السفينة...

- أرجوك يا أحمد... يا مالك أرجوك...

- حسنا بعد خروجهم سآتي إلى سفينة العشاق.

عاد الاضطراب يأكل صدره وينخر دماغه، يفكر بهم كلهم مرة واحدة: رمز، أحمد، أبوه، أخته، فارس، أمل، جواد، خالد... ولكنه نسي نفسه... كان يسير مثل محرك مشلول...!

- يا ابني يا مالك زيارتي هذه إليك مع ابنتي نجوى ولا بعشرة ملايين دينار، ولا بالدنيا كلها... نحن والحمد لله الناس يأتون إلينا ويقبلون أيدينا،

هل تفهم؟ ولكن أنا ألتمس لك العذر، أنت مازلت حزينا على أحمد رحمة الله عليه. ومع ذلك كان لابد أن تقدر مجيء والده وأخته بأقدامهم إلى بيتك، كيف تستقبلنا هكذا، أنت الذي يجب أن تأتينا، ابنتي هذه ماذا ينقصها يامحترم، أبناء الوزراء تقدموا لها ورفضناهم، هذه إهانة لنا، كان يجب أن تشكرنا على الأقل من أجل هذه المبادرة، على الأقل من أجل المرحوم، ولكن هذا ما تعلمه لكم الجامعات الفاشلة مثلكم، لو كانت واحدة من البنات الشر... أستغفر الله، ابنتي جالسة الآن، لو كانت واحدة من صاحبات السوء! سوف تركض وراءها يامالك حتى تحضى، سوف تأكل رغيف خبزك وأنت تجري وراءها مثل الحيوان.

السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

(٣٧)

في الطريق إلى رمز...

لي قاربٌ في البحر روحي أبحرت معَهُ

كفّايَ مجذافاه.. والعينان قنديلاه.. والأضلاعُ أضلُعُه

لا النجمُ لاح لمبحريه

ولا بَدا لنواظر الأحباب مطلعُه

تتدافع الأمواجُ ضدَّ مساره

وأنا بدفق القلب أدفعُه

اسودت الدنيا وضاقت الأرض، تذكر ذلك الذئب الذي جاءه يزوجه ابنته المسكينة... قال في نفسه:

سبحان الله... كان من الممكن أن أكون أنا في مكانه، ولكنه جاءني في الوقت الضائع، يبدو أن حكاية الوقت الضائع وراثة في هذه العائلة، أحمد يفهم الناس في الوقت الضائع، وأبوه يزورني في الوقت الضائع... وأنا الآن انتقلت إليّ عدواهم فقد صرت صهرهم في الوقت الضائع، وفي طريقي إلى رمز في الوقت الضائع، لاشك أن لديها مصيبة في الوقت الضائع... الزمن ليس في صالحي وليس في صالحها، وليس في صالح الإنسان الفلسطيني... أليس كذلك يا دكتور خالد؟ بل قل ليس في صالح الإنسان العربي، نحن أصحاب التفكير باللحظة الأخيرة، ترى ما المصيبة التي جاءتني بها رمز؟

في الطريق إلى رمز...

راح يفكر بالسفينتين:

سفينتك يا دكتور خالد قديمة.

والد أحمد سفينته جديدة...

سفينتك مبلولة بالماء المالح.

سفينته تعوم فوق الماء المفلتر...

سفينتك سفر حزين.

سفينته صاصلة الرنين...

سفينتك خشب قديم.

سفينته ذات شأن عظيم...

سفينتك تبحث عن شواطىء الحزن والوداع والحنين.

سفينته ترسو في موانىء الدينار والدولار والأضواء...

سفينتك مجتمع عائم.

سفينته كنز قادم...

سفينتك صُدفة.

سفينته موعد محدد...

سفينتك كهوف وعظام وجماجم ودفائن.

سفينته عروس السفائن...

سفينتك تسبح في الخيال.

سفينته تسبح في البحار...

سفينتك فقيرة.

سفينته لا...

في الطريق إلى رمز...

شاهد رمز...

شاهدها واقفة أمام المقهى... ملابسها رثة، المساحيق بؤس يلوح كباقي الوشم على وجهها.

- لماذا لا تدخلين؟ ملابسك لا تصلح لعرض الأزياء...

- يا مالك أرجوك، أنا لا أحتمل...

- ادخلي حتى أرى مصيبتك الجديدة

- لا أستطيع الدخول

- لماذا؟

- الدخان ورائحة الأراجيل تخنقني.

- يا رمز، كنت تبتلعين خرطوم الأرجيلة ابتلاعا!

- أرجوك، دعنا نتحدث بعيدا من هنا.

- إن لم تدخلي فأنا عائد إلى البيت، أنا جئت ليكون هذا آخر لقاء بيننا، لا أريد هموما ولا مصائب جديدة، هل تفهمين؟

- حسنا ندخل، ولكن أرجوك دعنا نجلس في الحديقة، لا أستطيع الدخول...

- كنت تختارين أضيق زاوية، الزاوية المعتمة...

- مالك أرجوك، ليس لدي وقت أضيعه! اسمعني جيدا، وأريدك أن تفكر معي وتنصحني ماذا أفعل...

- هاتي؛ فقد تعبت منك... تعبت منك... ومن تعبي...

- مالك باختصار شديد: أنا حامل...!

- ... ؟!!

- نعم يا مالك، هذه حقيقة...

- كيف؟!

- كيف؟! أنت الوحيد الذي يعرف كيف

- أنا لم أمسسك، كنت حذرا تماما معك...

- حسنا... ومن غيرك يعلم بموضوعي مع أحمد...

- آآه... هكذا إذن...!

- هل نسيت الأفكار والتخطيطات يا مالك، مالك أرجوك أكاد أختنق، دعنا نخرج...

- لا تتحركي، متى عرفت بالموضوع...؟

- المشكلة أن أهلي عرفوا، أخي رامز بالذات...

- كيف يا غبية؟!

- لا شيء، شعرت ليلا بدوار، وكان هو قد فقد وظيفته عند والد أحمد، وكنت أنا في حالة نفسية يرثى لها، بدأت أتقيأ، وشعرت بدوار شديد فأخذني رامز وأمي إلى المستشفى، وبعد الفحص... بعد الفحص يا مالك... توجه الطبيب إلى رامز وقال له : مبروك... المدام حامل!

- لا تبكي يارمز، أرجوك... أكاد أجن...

- ولولا الطبيب وحراس المستشفى لكنت الآن بجوار أحمد، ليتك استطعت قتلي يا رامز... وقبل ساعتين استطعت أن أغافل الجميع وأهرب من المستشفى لأتصل بك...

- وأمك ؟

- أمي... أمي هدّها السُّكّر... سمعت بالخبر من هنا، وسقَطَتْ في غرفة العناية الحثيثة من هناك، السكر هدها... أبي طعنها... وأنا قتلتها...

- والآن يا رمز ؟!

- والآن أنت يا مالك، أرجوك أنقذني، اليوم هربت من المستشفى، أمي لا أعرف مصيرها، ورامز... تصور يا مالك وأنا أمشي هاربة خائفة في ساحة المستشفى هذا اليوم، رأيت رامز بوجه أسود يدخل المستشفى ولم يرني... لقد نجوت في الوقت الضائع...

- صدفة أم مفارقة جديدة!

- مالك...

- نعم... نعم أنا آسف، أنا متعب يا رمز لا أستطيع البقاء...

- يا مالك أنا بحاجتك الآن، أرجوك، كن قويا كما عهدتك... أين أفكارك الرائعة المدهشة...؟

- أفكاري...!

- يا مالك أرجوك، دلني على شيء أفعله... اذهب لي إلى المستشفى واسأل عن أمي...

- ماذا تشربين...

- ليمون

- وأنا أرجيلة

- يا مالك لا أحتمل رائحة الأرجيلة

- يا رمز كنت تتعشّقينها، لابأس...عندما تلدين سنشرب القرفة...

- يا مالك بدون تجريح أرجوك... أف... لا أحتمل الأرجيلة، أنت جاهل...

- ولماذا تريدين أفكاري مادمت جاهلا؟ ثم لماذا لم تتصلي بي إطلاقا عندما مات أحمد، أنا كنت خائفا ومضطربا وقلقا، كنت أخشى أن تكون الهواتف مراقبة...! كان يجب أن تخبريني فورا.

- المهم يا مالك... أنت الوحيد الآن الذي يمكن أن يساعدني... أنت لا تعلم الحالة التي كنت أعيشها، وأمي أيضا ازداد مرضها وكنت قريبة منها، وكان رامز في وضع سيء، ولم أكن أخرج من البيت... لقد خرجت من البيت إلى المستشفى يا مالك...

- إذا قلت لك ارجعي إلى البيت كارثة... والعودة إلى المستشفى قضية وكارثة...

- أرجوك، تصور يا مالك... تصور أن رامز نسي نفسه وصرخ في المستشفى بأعلى صوته وقال: عندما اكتشف أحمد خيانتك وعلم بالحمل انتحر!

- وجهة نظر...

- أي وجهة نظر وأي وجهة سمع... فكر يا مالك أكاد أموت... أكاد أجن...

- اسمعيني جيدا...

- تكلم يا مالك... أرجوك

- حل واحد لا سواه

- ما هو؟ أرجوك!

- الإجهاض

- أقتل ولدي!

- ليس قتلا

- ماذا إذن؟!

- إجهاض...

- يا رجل اتق الله... من أي طينة أنت...

- أنا لست من الطين... أنا من الماء... من السفينة... كلنا من السفينة... من كل زوجين اثنين... هل تفهمين؟ الدكتورة أمل قالت هذا...

- مالك أرجوك... اخفض صوتك... أنت من الماء... وأنا من السفينة... كما تشاء... كلهم ينظرون إلينا...

- الإجهاض

- يا مالك أرجوك، هذا الجنين ليس ولدي وحدي...

- ولد من أيضا؟

- إنه ولد أحمد... إنه ولد شرعي... حرام عليك...

- أحمد...!

- نعم... حبيبي أحمد...

- حبيبك!

- نعم... حبيبي أحمد، هل نسيت أحمد الذي مات من أجلي...

- من أجلك؟!

- مالك ما بك... ماذا تظن إذن...! عندما طلب منه أبوه أن يطلقني رفض رفضا قاطعا لأنه يحبني، هي المرة الأولى التي تحدى فيها والده من أجلي، صار رجلا من أجلي أنا فقط، ولكن والده أقوى منه في كل شيء... فاضطر المسكين إلى أن ينتحر من أجلي...

- وجهة نظر أيضا...

- يا رجل دعني منك ومن وجهات النظر، ومن الروايات ومن دكتورك الذي نخرت رأسي به...

- دكتوري...! كنت تشتهينه، وتسألين عنه دائما...

- مالك أرجوك...

- وبعد ذلك يا رمز

- كأنك حائط...

- الحائط... من الذي أخبرك عن الحائط؟ حائط النور وجدار الفلسفة خاص بالدكتور خالد فقط... هل تفهمين؟ الحائط في بيتي لا أحد يقربه غير الدكتور خالد... افهمي هذا جيدا...

- نعم... نعم... أفهم أرجوك لا ترفع صوتك... يا مالك أرجوك يكفيني فضائح... أنا... الناس ينظرون إلينا... أنا... أنا... أحمد حبيبي عندما مات من أجلي عرفت تماما أنه يحبني كل هذا الحب، لقد عرفت أنه يحبني حتى

الموت، ولكن للأسف... بدأت أفهمه وأفهمك أنت وأفهم الناس جميعا... ولكن في الوقت الضائع...

- الوقت الضائع...! وجهة نظر أيضا...

- مالك...

- رمز...

- مالك...

- رمز...

دارت بها الأرض دورانا سريعا... وضعت يدها على رحمها، سقطت على الأرض وراحت تتقيأ بشدة... اجتمع الشباب واجتمعت البنات من جنبات المقهى، اقتربت الفتيات، حملنها إلى سيارة أحدهم وراح برفقتها فتاتان وشابان، وأسرعوا إلى المستشفى وذاب مالك كقطعة ثلج!

(٣٨)

في الطريق إلى البيت:

أنشأ يعد على يديه: واحد: جواد... اثنان: أحمد... ثلاثة: أم رمز... أربعة: رمز... خمسة: الجنين... خمسة... نعم خمسة أنا الذي قتلتهم... الأفكار الجميلة، والآمال العظيمة، والخطط الأبدية لا تقتل إلا بالجملة... ترى... هل ماتت رمز... هل ماتت أمها... والجنين... أمازال حيا يكابد نار الأرحام واضطراب الأحشاء... هل يشعر بأمه فيبكي معها؟ أم هو يبكي عليها؟ هل تناولت رمز طعاما مناسبا من أجل هذا المسكين الحائر من قبل أن يولد؟ لو قدر له أن يعيش لنزل يعرف القراءة والكتابة من أفعال أمه...! هذا الجنين له قصة أخرى... هل ماتت رمز...! هل ماتت أمها...؟ هل مات الجنين...؟ أيها

٤٨٦٤٦٠

الجنين... إياك أن تطرق الخزان...! ابقَ متعضِّيا... لا بأس، ولكن المهم أن تبقى مستعصيا على الحياة ابق كما أنت... إياك أن تخرج، كل واشرب واسبح في رحم أمك... ولكن إياك ثم إياك أن تخرج... ترى... من ستكون الضحية السادسة... من ستكون ضحيتي السابعة...!

ما بين مد وجزر، وخطوات ثقيلة كخطوات المرضى... وصل مالك البيت متعبا كإنسان... غائر العينين أو جاحظ العينين... قديما... أقدم من تراب البداية، جلس خلف الباب يريد الغياب... خيل إليه أن الجنين والأم والجدة يتضورون في غرف الأرحام والآلام والأسقام... رن الهاتف فرماه أرضا... هجم عليه بحذائه وانهال عليه ضربا حتى انخرس! عاد وجلس خلف الباب، بدأ الظلام يخيم شيئا فشيئا، عندما اكتمل الظلام نهض، وأغلق الستائر وأطفأ كل شيء حتى عينيه...! جلس يتأمل العتمة بعمق، عيناه شاخصتان في العتمة وجهه لا يتحرك، عقله صار مثل ضجيج عاصمة لا تنام، كل شيء ساكن إلا دماغه الذي كثرت فيه الحرائق والحوادث، شخصت عيناه أكثر فأكثر... بدأ وجهه يرتجف قليلا... شفتاه أكثر ارتجافا من وجهه، عضلات وجهه من الجهة اليمنى بدأت تنبض بانفعال، تجاعيد الضحك على جانبي عينيه بدأت تشعر بنبض العصب البصري، العصب الحائر ظل حائرا، الرؤية ماتزال واضحة رغم العتمة، ابتلت عيناه من الداخل بمثل مايسمى مسحة التعقيم، بدأت الخطوط الحمراء في بياض عينيه بالتوسع، بدأت شفتاه ترتجفان بسرعة أكبر، مسامات وجهه بدأت تتسع كي يمتزج عرق الصيف مع عرق الخوف، حالته أحاطت بالظلام وسيطرت عليه... هكذا... دفعة واحدة...

انفجر وجهه كله بالبكاء مثل الأطفال... بكى حتى ابتلت لحيته التي مضى أسبوع ولم يحلقها... وضع وجهه على الحصيروراح ينشج ويبكي...

ظل يبكي حتى استراح، جفت دموعه واحمرت مقلتاه، نهض مثل ميت ثقيل كسول، نظر حوله فرأى الظلام، وتحرك ودار والتف حتى وقف أمام الجدار، جدار الدكتور خالد، جدار النور والفلسفة، أخذ ينظر إليه... يعزز نظره فيه، ينظر ويمعن النظر، يشتد الخيال أكثر فأكثر... بدأ الجدار يتشقق بمكامنه... لحظات عصيبة حتى بدأت ملامح الدكتور خالد تظهر أمامه على الجدار، خيالات رمادية مرسومة أمامه، ولكنه كان يراها بوضوح، خرج شبح الدكتور خالد من عيني مالك والتصق بالجدار... جدار النور والفلسفة... نظر إلى الدكتور خالد... أمعن النظر في وجهه، شخصت عيناه... ركز في بؤرة النظر، وفي نظرة التبئير، لقد تأكد تماما أن الدكتور خالد الآن خرج من قفص الروح، ودخل في قفص الاتهام، حدق مالك به أكثر وأكثر، حتى تأكد أنه هو نفسه الدكتور خالد، نظر مالك إليه نظرة حقد، وأشار إليه بسبابته وقال:

- هل هو أنت...؟

- من...؟

- خالد

- أنا...! أنا الدكتور خالد... الدكتور خالد الحاج... أنا السيد الدكتور خالد الحاج...

- أنت منذ اليوم... خالد...

- أنا الدكتور خالد الحاج، أحمل شهادة الدكتوراه منذ خمسة وعشرين عاما... شهادة قانونية وشرعية معترف بها في جميع أنحاء العالم...

- اسمع يا خالد، أنت الآن في قفص الاتهام، بمعنى: اعرف نفسك جيدا، لا تحاول المواراة ولا المواربة... هل تفهم؟ عنادك هذا ربما يخرجك من قفص

الاتهام إلى حبال الإعدام... عندما أضع أمامك كل الأدلة والبراهين على إدانتك، سوف تندم يا خالد...

- أنا لا أندم على شيء فعلته...

- قلت لك لا تكن عنيدا، بالنسبة لي أنا... فقد تخلصت من كل العقبات التي أمامي، رمز وجواد وأمل وأحمد وأبيه وكل الناس، ولكني أجلت محاكمتك حتى النهاية، تصور... لقد انتصرت عليهم جميعا، هل سأعجز عنك أنت؟

- سبحان الله يا مالك! كنت تتمنى أن أرسلك إلى مكتبي أو إلى المكتبة لتستعير لي كتابا... كنت تتمنى لو تحمل حقيبتي! ولكن لن أمنحك هذه الميزة بعد اليوم...

- لقد انتهى الآن كل شيء... ولكل زمان دولة ورجال...

- لم ينته أي شي... أنا هو أنا... السيد الأستاذ الدكتور خالد الحاج...

- يا خالد، انزل من عليائك قليلا حتى ترى الحياة...

- أنا أرى الحياة أكثر منك وأوضح...

- أنت لا ترى شيئا غير الكتاب والمعلومات وحشوها في دماغك والاستئثار بها مع الاستبداد بالرأي وعدم سماع غيرك.

- لم أكن أبخل عليكم بشيء من العلم...

- كنت تتأخر عن المحاضرات

- هذا شأني وليس شأنكم... أنت بالذات بدأت بتحريض الطلاب على الهروب من المحاضرات، أقرب الناس إليك كان يأتيني بأخبارك وكلامك عني... كنت تسبني وأسكت عنك، ولا أشعرك بأنني على علم بقلة أدبك.

- لم تكن تسمح لنا بالأسئلة والحوار والمناقشة... كنت تهتم ببث العيون

علينا...

- كل شيء كان واضحا لا حاجة للأسئلة، ومع ذلك كنتم تسألون وتناقشون، أنت بالذات... كم سؤالا سألتني عن السفينة وجبرا والدكتور فالح، كنت تربط مواضيع الروايات جميعها برواية السفينة، كأنك لم تقرأ غير السفينة ولم تفهم سواها... مع أنك لم تفهمها... نخرت دماغي بها... حتى سئمت منك السفينة نفسها، غرقت حتى لا ترى وجهك...

- أنت الذي أغرقتها...

- كفاك تفاهات... السفينة غرقت لأنكم أبناؤها العاقون... ثم إن هذا أمر عَرَضي لا يهمني... هناك شيء يسمى الطيران والتحليق عاليا...

- يا خالد، السفينة هي محور كل شيء، هل نسيت كلامي عن السفينة حين قلت لك بأن السفينة هي نموذج مصغر من الحياة...؟

- لم أنس ذلك، وأنا أعرف هذا: السفينة هي الحياة وقبل أن تشبهها أنت بالحياة وقبل أن يضعها جبرا رديفا للواقع، كان هناك كلام عن السفينة والحياة هو أبلغ من كل كلام قيل عن السفينة:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

هذه هي السفينة يا مالك... ليس كما كنت تفهمها أنت، السفينة ليست حياة فحسب، ولكنها الحياة والتعاون والإرشاد، والذي لا يؤخذ بالإرشاد، يؤخذ على يده لكي ينجو وينجو غيره، هذه هي السفينة، عمل للجميع والذي

لا يعمل الصواب يؤخذ على يده، هل تفهم؟ يؤخذ على يده، وأضربه بيد من حديد...

- وأين موقعك أنت من هذه السفينة؟

- أنا الربان... الربان الأعظم... أقدم النصيحة لكم، وأنشر بينكم تعاليمي، وأسير بكم إلى بر الأمان، وأعلو بكم درجات الحضارة ومدارج الأفلاك.

- أية نصيحة هذه!

- في كل رواية نصيحة وعبرة وحياة... في كل رواية عبرة كنت أحكيها، في المجتمع أو في الحياة أو في الاقتصاد أو في السياسة، أو حتى في الجامعة...

- السياسة!

- نعم، السياسة... شيء من الحياة، يؤثر ويتأثر...

- دائما إجاباتك ملتوية، دعنا نتحدث فيما هو أهم من هذا...

- ليس ثمة ما هو أهم من الرواية.

- بل هناك ما هو أهم بكثير...

- ليس ثمة ما هو أهم من الرواية.

- أحمد

- من أحمد هذا...؟!

- أنت تعرف من هو أحمد

- تقصد أحمد المنتحر؟

- ماذا تقول فيه؟

- جبان

- لماذا؟

- كان بإمكانه أن يتزوج عشيقته رغم أبيه، دون أن يجبره أبوه على الزواج من ابنة عمه...

- ابنة عمه؟!

- نعم، ابنة عمه.

- وجهة نظر!

- صرت تتحدث عن وجهات النظر يا صاحب النظرات والعبرات!

- لماذا لم تقدم له النصح والإرشاد؟ لماذا لم تتوقع انتحاره كما تتوقعه في الروايات؟ لماذا لم تطرق له الخزان أيها المجرم؟!

- ليس مهما... شخص انهزامي كأحمد لا يهمني؛ الإنسان المثابر هو الذي يهمني، الذي يقرأ ويربط ما قرأه بالواقع؛ لأن الأدب لا ينفصل في يوم عن الواقع،الأدب والواقع مثيلان لا يختلفان، الواقع هو...

- اسمع ياخالد... لا أريد أن تضعني في دوامة جديدة... أنت رجل صعب عنيد حتى وأنت في قفص الاتهام، أنا شخصيا مظلوم، ولكنني الآن في موقف عصيب أمام العالم، يجب أن أنسى مظالمي وأتطلع إلى مظالم البشرية التي تجبرت بها وعليها... إن من التهم المنسوبة إليك كتابك «باريس في الأدب العربي الحديث» لماذا اخترت باريس دون غيرها؟ كيف وصل إليك هؤلاء الذين وصلوا لأدونيس وغيره؟ وكتاباتك الأخرى: دوائر المقارنة، أنت تقارن ماذا بماذا؟ لماذا تحاول أن تضع أمتك في دوائر ومدارات ومتاهات؟ وكتابك، السيرة والمتخيل، دائما تضع السيرة والواقع إزاء الخيال، تريد أن تجعل واقع أمتك أحلاما وتخيلات... وما هذه الترجمات المطعومة المسمومة: ما بعد اليوتوبيات، وتاريخ الأدب المعاصر الناطق بالألمانية،ويوميات كافكا... ثم إنك

دائما تركز على السيرة... السيرة... السيرة، سيرة جبرا، وسيرة بنت الشاطئ، وسيرة محمود درويش من خلال شعره... ما سر كل هذه السير؟! أنت تريد أن تكشف الأسرار، وتعرف طرائق التفكير عند أبناء أمتك... كل هذا وغيره؛ ألا يدلنا على أنك تعمل لصالح جهات مشبوهة غريبة وغربية؟! أين جهودك في خدمة تراثنا وأمتنا؟ عدا عن ذلك، كتابك في الانتحار، إنه كتاب جميل، بمعنى آخر، إنه كتاب يزين الانتحار للقارئ، ولا تنس أنك رفضت الدراسة في وطنك وذهبت لتدرس في بلد إرهابي نازي، بمعنى أنه هم الذين دفعوك لتأليف كتاب الانتحار لتقتل شباب هذا الوطن، وتقوم بعملية تصفية جسدية وفكرية لهم مثل جبرا وأدونيس وغيرهما، أنت حتى هذه اللحظة لا تعلم أن هناك طالبا جامعيا، أغراه كتابك فدفعه إلى الانتحار.

- لا تقل لي إنه أحمد.

- أحمد لا يحسن القراءة، أنا أتكلم عن شاب انتحر بعد صدور كتابك بفترة وجيزة، إجمالا هذه واحدة من تهم كثيرة، ومنها على ما أذكر -لأن ملفك الأسود ليس بين يدي الآن- منها قضية الطالب الأجنبي الذي حرمته الشهادة، وبالتالي خسر البعثة الدراسية التي حصل عليها من حكومته، ومنها تلك الطالبة التي أشرفت عليها في أطروحة الماجستير، وبعد المناقشة طلبت من اللجنة أن يرسبوها وأنت أنت المشرف! من أي جِبِلَّة أنت؟! ثم تعال هنا... أنت لا تضع مسماك أو لقبك العلمي على مؤلفاتك، فلا تقول (الدكتور)، هل تظن نفسك أعلى من زملائك الآخرين؟ أم تظن أنك أعلى من المرتبات العلمية، فتتعالى عليها؟ ثم إنك تضع اسمك دائما في أعلى الغلاف، تريد أن تسمو فوق التسامي وفوق كل شيء... وفي بعض مؤلفاتك يكون اسمك أكبر حجما من

عنوان الكتاب! ترى نفسك أعلى وأكبر من كل شيء... دعك من كل هذا، وكن أكثر واقعية كي ترى الواقع على ما هو عليه؛ بسيطا لا تعقيد فيه ولا عقد، اسمع يا خالد... كنت أعرف تماما سر التعامل مع رمز، وانتصرت عليها، وعلى الدكتور جواد، وعلى ضابط الأمن، وعلى أحمد، حتى والد أحمد استطعت بخمس دقائق أن أمحو كيانه، حتى الجنين في بطن أمه رسمت وجهه بالشحوب، الدكتورة أمل بمكالمة هاتفية صعقتها صعقا، صحيح أنا كنت وسطا بينك وبين الدكتورة أمل، ووسطا بين أحمد ورمز التي لا تعرفها، وكنت وسطا بين طلابك الخمسة عشر، ووسطا بين الماء والطين، ووسطا بين الحياة والموت... أما الآن... اسمع ياخالد... أما الآن... فأنا لم أعد وسطا... أنا الربان...

- ماذا...؟!

- وعليك أن تأتمر بأوامري، وتنفذ التعليمات بدقة، أنت منذ اليوم كأي واحد من أهل السفينة، إن اعتدلت فبها ونعمت، وبغير ذلك سأتركك تصارع التيار وحدك، قد أجعلك نائبا لي في جمهوريتي القادمة...

- أنت وقح...

- لك في نفسي بقايا احترام؛ ولذلك لن أجيبك...

- سأجعل من روحك حطاما في متحف الوقاحة...

- سأجعلك نائبي بحكم علمك وخبرتك، وهذا أمر لا أستطيع أنا ولا غيري إنكاره، إجمالا سيكون دورك حفظ الأمن على السفينة؛ لأنك تصلح أن تكون قائدا عسكريا، حتى وإن كان مظهرك يوحي بالإنسانية، فإن جوهرك الحقيقي هالة من القمع والإرهاب، ولكنه إرهاب مؤدلج، عقلية جبارة منحها الخالق لنفس متغطرسة مستبدة، أنت لو سخرت قدراتك العقلية لخدمة

وطنك وأمنك، ولم نعمل لصالح الغرب؛ لجعل الغرب منك أسطورة في الإرهاب، وحسبوا لك ألف حساب... ولكن... أسفي عليك يا خالد... أسفي عليك...!

- ستظل حالما يا مالك... وغبيا أيضا...

- إذن، لي طرق أخرى كي أهزمك يا خالد... قلت لك إنني انتصرت على الجميع، أما أنت فمعدنك صلب... صلب... ولا يقطع الماس إلا الماس، هل تفهمني؟ أنت كل شيء تحيله إلى الرواية والأدب والخيال، هذه هي حياتك وهذه هي الحياة عندك، أنت لا تفهم غير هذا، ولذلك، ومن أجل هذا... اسمع جيدا... قررت أن أخاطبك بالشيء الذي تفهمه أنت... اسمع يا خالد... اسمعني جيدا... أنت ظلمتني، ولكي أثبت لك هذا؛ فإنني سأخاطبك بالشيء الذي تفهمه ولا تفهم سواه... لقد قررت أن أكتب الرُواية...

- أنت؟!

- نعم أنا

- أنت حالم

- أنت ظالم

- أنت عائم

- أنت نادم

- أنت لم تكن تحسن قراءة الرواية، تريد أن تكتبها! أنتم طلابنا، أو بمعنى أدق: تابعونا، وحاملو حقائبنا، نعرفكم جيدا، ونعرف أخطاءكم الإملائية.

- أخطاؤنا هي أخطاؤكم...

- انتبه جيدا لدروسك

- وإذا كتبتها؟

- أنت فاشل

- أنت قاتل

- أنت جاهل

- أنت زائل

- العب بعيدا واحترم نفسك أولا... ثم تعلم كيف تحترم الكبار...

- أنتم الذين تظنون أنفسكم كبارا سوف أحجمكم، وسيعرف كل واحد منكم مكانته الحقيقية في سفينتي وروايتي وجمهوريتي القادمة...

- ستكون فاشلة مثلك، أنسيت أنك فشلت في كتابة مخطط رسالة ماجستير؟ مجرد مخطط من بضع صفحات، وحتى الآن لم تأتني بمخطط جديد، وقد وعدتك بالإشراف على مخططك الموهوم، ورسالتك العائمة المبلولة حين أتيتني ترجوني، أنت لم تحسن كتابة المخطط، فهل ستكتب رواية؟ أنت تكتب رواية؟!

- لا... لا يا خالد، كيف عرفت! كيف عرفت أنني كتبت رسالة؟ لقد أحرقتها هل تفهم؟ أنا لا أحب الرسائل، لن أكتب رسالة بعد اليوم، بل سأكتب رواية، هل تفهم سأكتب رواية، هناك نلتقي يا خالد، هناك ستعلم من أنا... أنت لا تعرفني حين أستجمع قوى النفس الذبيحة ودماءها وأخلطها بأحبار الكتابة، أنت لا تعرفني يا خالد، أنا منذ بدء الكتابة... وأنا أمحو، حين أكتبها ستعرف أنني مظلوم، وسيأتي يوم تدرسها لطلابك... ستكون أم الروايات ومختصر الحياة، هناك... هناك فقط سوف تحتاجني، سوف تبحث عني، ستصير أنت الظل، وأصير أنا الحقيقة، ستكون تابعا لي يا خالد...

- اسمع يا ولد...

- لا تقل ولد

- أنت ستكتب سيرة دراسية... شيء جميل... فلما صار راوية رواني!

- لا تضحك ولا تهزأ يا خالد... هذه فذلكة من فذلكاتك... أنت تجمع في كتابك ثلاثة أشياء:

الانتحار في الأدب العربي

دراسة في جدلية العلاقة بين الأدب والسيرة

الانتحار والأدب والسيرة

الموت والخيال والحياة

هرم واضح الأبعاد، ثالوث لا ينكسر، هذه هي الدنيا: موت وخيال وحياة، ربما تقول في نفسك: ما الجديد الذي سيأتي به هذا الثرثار؟

نعم، سآتيك بكل شيء وكل لا شيء، سآتيك بالانتحار والأدب والسيرة، الموت والرواية والحياة، الهرم نفسه، ولكنني سأقلب هذا الهرم، هل تعرف كيف؟ سأجعله: الحياة، الخيال، الموت... سأبدأ بالحياة ثم علاقتها بالخيال ثم الموت، هكذا تبدأ طبيعة الأشياء، لست مثلك أنت، تبدأ بالموت، بل بأعتى أنواع الموت!

- إياك أن تضيع وقتك بهذه التفاهات، انتبه لدراستك ورسالتك...

- قلت لك أحرقت الرسالة، أحرقتها... سأكتب روايتي، سوف أبلغك فيها سلام إنسان بعثه إليك منذ زمن.

- من هو؟

- لن تعرفه، وإذا أخبرتك فإنه سيفقد مكانته في الرواية، وربما تفقد الرواية مكانتها.

- لقد عرفته

- قلت لك لن تعرفه

- السفينة

- لقد أضحكتني يا خالد! بدأت إجاباتك الألمعية تتراجع، أقول لك إنسان... إنساااااااان... ! هذه واحدة تسجل لي، فكيف إذا كتبت روايتي غدا! غدا ستعرف الإنسان الذي بعث إليك السلام، ولكنني سأخفي عنك شيئا عظيما! أمرا جللا! سأخفي عنك أهم شيء في الرواية، مهما حاولت الغوص في الأعماق وبين السطور، فإنك ستغرق وأنت تبحث عنه ولن تجده، ولات حين نجاة، لن أقصد أو أتعمد إخفاءه، ولكنه سيختفي عنك بالضرورة، مع أنه موجود في كل كلمة وفي كل حرف، أنا أعرف ياخالد، أعرف أنك لست خالد، ولست ظله، أنت شبيه الظل، وربما شبيه الشبيه، لقد أتعبتني ياخالد... أنت رقم صعب ياخالد...!

- ألم أقل لك بأنك ثرثار غير متزن في كلامك، وحتى في حياتك، دعك من كل هذا... يكفيك خسارات... وانتبه لدراستك، لن أقول لرسالتك هذه المرة، ستقول بأنك أحرقتها، انتبه لدراستك يا ولدي.

- يا ولدي! غريب، أول مرة تقول كلمة فيها حياة... صرت تقلد الدكتورة أمل، يبدو أنك بدأت تشعر بالخوف مني، وبالخطر على موقعك من السفينة، أنت لا ينفع معك إلا القوة...

- يا ولدي، أنا قدمت لكم محاضرة كاملة عن الآباء والأبناء لتصيروا من البشر، وتبروا بآبائكم...

- ولكنك خارج المحاضرة لا تعاملنا هكذا!

- أنت تدور حول بؤرة متماهية لن تستطيع الوصول إلى بؤرتها أو حتى إلى تبئيرها... دعني أذهب الآن، لا وقت لدي للجدل مع فاشل مثلك...

(بدأت الصورة الوهمية تتلاشى من عيني مالك شيئا فشيئا، بدأت الصورة الصوتية والأصوات الخيالية بالاختفاء من حوله، كل شيء بدا هادئا، لم يعد مالك قادرا على التخيل أو استحضار الصورة من شدة التعب المحتبس في بدنه...)

- خالد... أين ذهبت، لماذا تركتني وحيدا؟ دكتور خالد أرجوك... ارجع، سأخفي عنك الكاتب الضمني، ارجع حتى أقول لك من هو الكاتب الضمني، أنت تعرفه جيدا، أرجوك لا تتركني وحيدا، لقد اضطربت السفينة، تعال خذني إليك... هاتني منك وخذني إليك... دكتور خالد أرجوك، هاتني منك... هاتني منك ثم اتخذني إليك، لا تتركني في الظلام... لن أستطيع أن أجمع أجزاء السفينة وحدي... دكتور خالد... دكتور... أنا هنا... لا أعرف قيادة السفينة... لا أعرف معنى الحياة...

ظل يصرخ ويصرخ، حتى خيل إليه أن صدى الصوت يجتمع في أذنيه، شعر بالخوف، سكت قليلا... شعر بالخوف من هدأة الأصوات، ارتعدت فرائصه، ارتجف بعنف... كاد يختنق، يجفل مع أي همس من هنا أو هناك، جلس على الأرض، تمدد بخوف شديد... وجهه على الحصير، يرتجف بشدة، ظل كذلك حتى هدأت أذناه وانسحبت الأصوات منهما شيئا فشيئا وراح في نوم عميق...

(٣٩)

ظل نائما مستغرقا في نومه حتى صحا ظهرا على صوت الهاتف... كان مرميًا على الأرض، تناول حذاءه وأمسكه كأنه جهاز التحكم عن بعد، وصار يضغط على أزرار الحذاء بأصابعه ويوجه الاتجاه نحو الهاتف حتى سكت الرنين، نظر إلى الهاتف الذي لم يبق منه سوى الصوت، حمل الحذاء وراح يضرب الهاتف، ولكنه عاد إلى الرنين، أمسكه وضربه بالحائط ضربة أخرسته إلى الأبد، ثم عاد إلى مكان نومه على الحصير، وراح يحاول النوم ثانية.

وبينما هو كذلك، طرق الباب طرقا شديدا، أجفل وخاف، زحف إلى الباب، ونظر من عقب الباب المرتفع عن الأرض قليلا، ضحك وقال: أعرفه من حذائه...

ظل فارس يطرق ومالك لا يرد، حتى كف عن طرق الباب، عندها وقف مالك ونظر من ثقب الباب، حالة من الرعونة الهوجاء أصابته، عندما رأى فارس واقفا مقابل الجدار ويكتب رسالة...

- لا يا فارس... أرجوك... أرجوك لا تكتب أية رسالة... أنا موجود هنا... تفضل... كلمني، لا تكتب رسالة...

- والله يا أخي... ماذا جرى لك، أنا حضرت لأعطيك الرسالة التي وجدتها في صندوق بريدك...

- ماذا... رسالة في صندوق بريدي...؟!

- أين هي؟

- يا أخي قل لي تفضل أولا...

- تفضل... تفضل...

(دخل فارس وراحت عيناه ترقب بقوة السرير والطاولة والأوراق حتى لاحظ مالك ذلك...)

- فارس... عمّ تبحث؟

- لا...لا... لا شيء...

- فارس...

- قلت لك لا شيء...

(أمسك مالك بكتف فارس بقوة)

- أنت تبحث عن الرسائل... أنا أعرفك جيدا، أنت متخصص في إرسال الرسائل ومتخصص في معرفة ما فيها، ومتخصص في نقل الأخبار الضارة...

(شعر فارس بقوة يد مالك غير الطبيعية...)

- أنا يا مالك فقط أحضرت لك الرسالة

- لا تنطق كلمة «رسالة» هل تفهم...

(وأحكم قبضته على عنق فارس)

- نعم، نعم، أفهم جيدا...

(كاد فارس يختنق... شعر بخوف شديد عندما ازدادت القبضة قوة وإحكاما، أحس أن وراءها قوة جنونية خارقة، ارتعد من عيني مالك الجاحظتين ووجهه المتيبس)

- قلت لك أفهم... أفهم...

استطاع فارس بصعوبة أن يتخلص من يدي مالك وولى هاربا ولم يعقب، في حين أغلق مالك الباب وراح يستريح من شدة التعب، تعب تعبا شديدا، جلس على الأرض وظهره إلى الحائط... الحائط الساقط... ارتاح من الحياة بضع

دقائق، ثم نهض وطبع على الحاسوب ورقتين ألصقهما على الباب:

الرجاء
خلع الحذاء

إذا كان لديك رسالة
فضعها في سلة الزبالة

دخل البيت وأغلق الباب وشعر بالارتياح، ارتياح الضمير والجسد معا، نظر إلى كل شيء حوله، حتى نفسه... دار حولها فرآها واضحة كالموت، نظر بتمعن إلى الجدار، جدار النور والفلسفة، تذكر أجمل اللحظات حين كان يتخيل أستاذه وهو يحرك الزمن الروائي الجميل، كان يتذكر خيالاته التي يتخيل فيها البحر الأبيض المتوسط الجميل، تذكر كل شيء جميل حين كانت ذاكرته تأخذه إلى ذلك الزمن الجميل... نزلت دمعتان ساخنتان يائستان من عينيه البائستين، كانت نظراته إلى جدار النور والفلسفة مملوءة بالحنين الذي يشوبه الأسى، كان يحاول استحضار الأخضر البحري، لكن ذاكرته أيضا كانت ضعيفة وحزينة ومنهارة، فلم يستطع استحضار أي شيء على جدار النور والفلسفة... نظر أيضا إلى الحاسوب، وقف إزاءه... ثم طبع ورقة وألصقها

على جدار النور والفلسفة، كانت تقول:

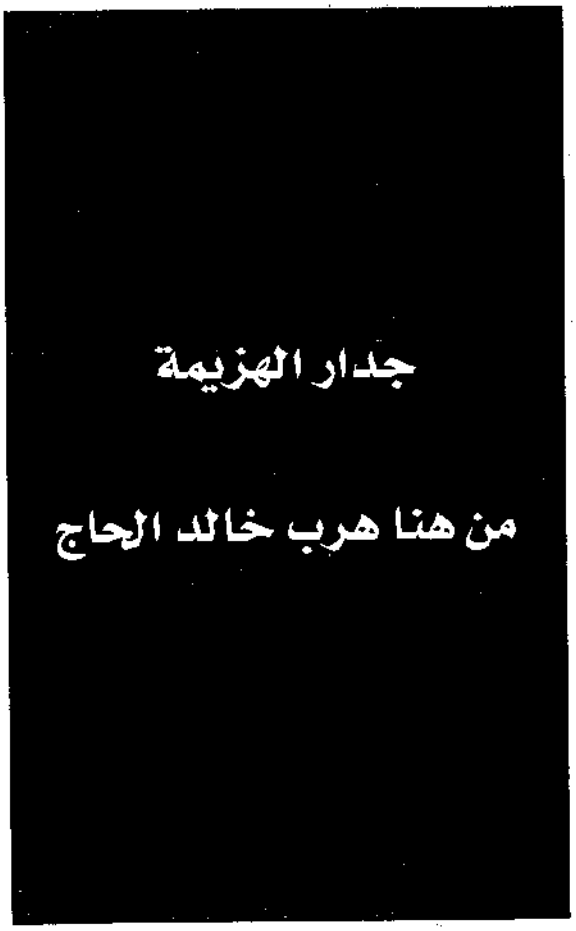

وأمسك بيأس قلما أسود عريض الخط، ورسم على جدار النور والفلسفة بيد مرتجفة، خطا من الأعلى تبدأ عقدته من مسمار مضروب على جدار النور والفلسفة، وبمحاذاة المسمار بشكل أفقي، رسم خطا يمثل سقف غرفة الإعدام، وأنزل خطا عموديا من منتصف الخط الأفقي إلى أسفل، وفي نهاية الخط رسم دائرة بمحيط عنق خالد الحاج...!!!

فض الرسالة الجديدة التي أتى بها فارس:

«نظرا لتكرار غيابك عن عملك في الآونة الأخيرة دون عذر رسمي، إضافة إلى عدم قيامك بواجباتك الوظيفية المطلوبة منك، وعدم تعاونك مع زملائك والمراقبين، وخروجك المتكرر من دوامك دون مغادرة رسمية، فقد قررت توجيه عقوبة الإنذار إليك، راجيا الالتزام بالدوام، والعمل على تصويب أوضاعك».

أطلق ضحكة عالية وقال باستهتار: تصويب أوضاعي! حسنا سوف أصوب أوضاعي، سهل جدا، ولكن أوضاعكم أنتم... أوضاع الوزارة... من سيصوبها؟ استراتيجيات التقويم الفاشلة تطبيقيا... من يؤسس لها أساسا صالحا لتقوم عليه...؟

أمسك الرسالة ومزقها، جلس قليلا يفكر في تصويب الأوضاع الحكومية البائسة اليائسة، شعر بالجوع يأكل من جوعه، ذهب إلى المطبخ، وجد الوعاء الذي ذوب فيه رسالته إلى أحمد، عاد إلى الصالة، أحضر قطع الرسالة الحكومية، وضعها في الوعاء، زاد كمية الماء قليلا، قال: أوه... نسيت أهم شيء...

ذهب وأحضر الوعاء الموجود فيه رسالة أحمد المحروقة مع بضع الورقة الأولى التي بقيت من الرسالة، وضع الرسالة ومخلفاتها في الوعاء، تناول ملعقة خشبية، راح يحرك المكونات، أحضر مجلة قديمة لديه وراح يقرأ:

١. كوب طحين.

لايوجد طحين، فوضع ما تبقى لديه من الكربونة.

٢. أربع بيضات من دون الصفار.

قشر أربع بيضات من البيض الذي سلقه أمس، فصل الصفار عن البياض، ووضع البياض المسلوق في الوعاء.

٣. ملعقة مسحوق الفانيلا.

لايوجد فانيلا فوضع ملعقة سكر، وهو يدندن: لا مسحوق سواي...

٤. كوب حليب.

لا يوجد حليب، أحضر ثلاث قطع من جبنة المثلثات ووضعها بدلا من الحليب، وراح يحرك الخليط أكثر وأكثر... تذكر شيئا مهما حتى تكتمل الوجبة، أحضر قرصين من أقراص الحاسوب، الأول:

إيطاليا X ألمانيا ٢٠٠٦

والآخر:

عندما يبكي الرجال فريد شوقي نور الشريف

أحضرهما وألصقهما ببعضهما بلاصق شفاف، وضع في فتحة القرصين قلما، وضع على القلم منديلا أبيض، وضع الشكل الجديد في الوعاء بعد أن زاد كمية الماء كوبا واحدا، وضع القرصين في الوعاء، واستعد للنفخ، ولكن القرصين سرعان ماغرقا، استغرب غرق القرصين والقلم والشراع، تذوق الطعام بالملعقة الخشبية، لم يستسغ طعم طعامه، ففكر ثم فكر ثم فكر وصاح قائلا: وجدتها... وجدتها... هذا هو السبب، يجب أن يكون هناك ملح في البحر لتكون قوة دفع السائل للجسم أقوى من قوة دفع الجسم للسائل حسب قانون الأجسام العائمة... عندها لن تغرق السفينة...

تناول ملحا في الملعقة، وضعه في الوعاء، تذوق الطعام: أم... لذيذ... الأحبار بالبيض وجبة دسمة...

ذهب إلى الصالة، تناول ورقة من دفتر مادة «الرواية»، وبالذات من الصفحات الأولى، ثنى الورقة من المنتصف، ثلث أعلاها وثنى ماتبقى من أسفلها إلى الخلف، أكمل عمل سفينة جميلة، وضعها في وعاء الطبخ وراح ينفخ، وراحت السفينة تجوب البحار... تذوق طعم الطعام، وجده كما هو، ومازال باردا... قال: نعم هذا هو السبب: الطعام ينقصه سائل الماغما...

أشعل عود الثقاب... أشعل الموقد شعلة قوية...

٥. استمري بتحريك المكونات.

راح يحرك المكونات ويدور حول السفينة، يحرك ويدور ويصارع التيارات حتى راحت الحرارة تتعب يده، بدّل يده الأخرى، والحرارة تزداد، بدأت المجاذيف تتباطأ وبدأ البخار بالتصاعد، شيئا فشيئا بدأت المكونات تغلي وتغلي...

أيقن أن الطعام ناضج تماما... تركه ليبرد وذهب إلى طاولته، جلس وتناول قلما وورقا كثيرا... كثيرا جدا...جدا... جدا... راح يكتب... نعم راح يكتب... راح يكتب كل شيء... الحياة والموت والانتحار والرواية، مع تشديد الرّاء والتركيز على منحنى الكتابة كثيرا، تذكر كل شيء ونسي شيئا واحدا فقط...

راح يكتب ويكتب... لم يبق حبر ولا ورق، راح يكتب بدمع العين خلف الورقة: الحياة والموت والانتحار والرواية...

راح يكتب على الجدار، جدار النور والفلسفة... الحياة والموت والانتحار والرواية...

٤٨٦٤٦٠

على الباب، على الشباك، على الأشياء... على الحياة على الموت على الانتحار على الرواية...

راح يكتب ولا يقرأ، فقد عشيت عيناه بالسهر، ولا قدرة على القراءة... الكتابة فقط، الكتابة فحسب... رغم حرمانه وجوعه، راح يقتات من جوعه المتهالك في جوف، وراح يجتر الحياة والموت والانتحار والرواية... راح يتذكر ما لم يحدث معه من أشياء حتى الآن، ولكنه يكتبها... يكتبها بحبر الحياة والموت والانتحار والرواية... نسي أن يقول للدكتورة أمل: وحدك لا تستطيعين أن تخيطي شراع السفينة، ولاسيما أن هناك من يتعمد تمزيقه...

راح يكتب على الماء والنار والهواء والغبار... الحياة والموت والانتحار والرواية...

على الأيام والأحلام والأسقام والأرحام... الحياة والموت والانتحار والرواية...

نسي الكثير...! ولكنه كتب الحياة والموت والانتحار والرواية...

على جدار الهزيمة: الحياة والموت والانتحار والرواية...

على الليل والنهار: الحياة والموت والانتحار والرواية...

ظل يكتب حتى الأبد: الحياة والموت والانتحار والرواية...

نعم:

الحياة... الموت... الانتحار... الرواية...

ظل يكتبها...

اسمها:

«الرِّواية»

أولها:

«السفينة»

آخرها:

«أول قطعة تفك آخر قطعة تركب»

١١/تموز/٢٠٠٧

بدأت